جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

قسم اللغة العربية

صورة مكة المكرمة في أدب الرحلة الاستشراقي

ـ دراسة تحليلية في نماذج مختارة ـ

رسالة مقدمة إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

كتبت من قبل الطالبة:

آية عباس فؤاد مسلم

بإشراف الأستاذ الدكتور

علي محمد ياسين

ربيع الاول1445هـ **تشرين الاول2023م**

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾

صدق الله العظيم

[سورة الطلاق/ الآية ٢-٣]

ترشيح رسالة للطبع

نظر لإنجاز مباحث وفصول (الرسالة) الموسومة بـ(صورة مكة في أدب الرحلة الاستشراقي – دراسة تحليلية في نماذج مختارة -) لطالبة الماجستير **(آية عباس)**فاني أرشحها للطبع

التوقيع:

المشرف: أ.د علي محمد ياسين

مكان العمل: جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: 18 – 6 – 2023

إقرار المشرف

أشهد أن الرسالة الموسومة بـ (صورة مكة المكرمة في أدب الرحلة الاستشراقي- دراسة تحليلية في نماذج مختارة -) التي قدمتها الطالبة (ايه عباس فؤاد مسلم) قد تم إعدادها تحت إشرافي في جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في لغة القرآن وآدابها .

التوقيع:

المرتبة العلمية : أستاذ

الإسم: د. علي عمر ياسين

مكان العمل: قسم اللغة العربية/كلية العلوم الإسلامية

التاريخ: ٢٠٢٣-٦-٢٢

بناءً على التوصيات المتوافرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة.

التوقيع :

الاسم: أ.م.د. حامد عبد الحمد

التاريخ: ٢٠٢٣/٧/٢٧

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن رئيس وأعضاء لجنة المناقشة بأننا اطلعنا على هذه الرسالة الموسومة بـ (صورة مكة المكرمة في أدب الرحلة الاستشراقي – دراسة تحليلية في نماذج مختارة–) وناقشنا الطالب (**آية عباس فؤاد**) في محتواها وفيما له علاقة بها ونعتقد أنها جديرة بالقبول بتقدير (جيد جداً) لنيل درجة الماجستير في لغة القران وآدابها.

التوقيع:

الاسم: ا.د. فتحي عبد الرسول معيني

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ: ١٣-٩-٢٠٢٣

التوقيع:

الاسم: ا.م.د. هيفاء حسين لطيف

المنصب في اللجنة: عضواً

التاريخ: ١٠/٩/٢٠٢٣

التوقيع:

الاسم: أ.د. علي سرايه

المنصب في اللجنة: عضواً ومشرفاً

التاريخ: ١٣-٩-٢٠٢٣

التوقيع:

الاسم: د. رمل حسن طه

المنصب في اللجنة: رئيساً

التاريخ: ١٢/٩/٢٠٢٣

صُدقت في عمادة كلية العلوم الإسلامية

التوقيع:

الاسم: **أ.د ضرغام كريم كاظم الموسوي**

العميد وكالة

التاريخ: 2023/10/8

الإهداء

-إلى أم أبيها، وأمنا، سيدتنا، ومولاتنا فاطمة الزهراء(عليها السلام).

- وإلى أبي الفضل، مفخرة بني هاشم، العباس ابن أمير المؤمنين (عليهما السلام).

أهدي بحثي هذا...

الباحثة

الشكر و العرفان

الحمدلله على نعمه التي لا يحصيها غيره، حمدًا أبلغ به رضاه, أؤدي به شكره، و أستوجب به المزيد من فضله، الحمدلله أوّل محمود، و آخر معبود، و أقرب موجود.

لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل و الثناء الجميل إلى كل من :

والدي الذي كان وما زال لي درعًامنيعًا أتحدى به صعاب الحياة.

ووالدتي أشكركِ كثيرًا لأنك ِموجودة في حياتي، لولاك لم أكمل مسيرة حياتي، وأسأل الله أن يعطيكم دوام الصحة و العافية.

أشدّ بهم أزري أخي وأخواتي الذين لم يبخلوا عليّ بوقتهم و جهدهم دمتم لي فخرًا.

وأتقدم بوافر الشكر و التقدير و الامتنان إلى الأستاذ الدكتور **علي محمد ياسين** لتفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة، ولما بذله من جهد كبير في المراجعة و المتابعة وإبداء الملاحظات التي أغنت الرسالة في كل جوانبها.

السادة رئيس لجنة المناقشة و الأعضاء الأفاضل المحترمون لقبولهم مناقشة الرسالة، و شكري و تقديري للأساتذة المقومين على جهودهم في إظهار هذه الرسالة بشكلها اللائق و مراجعتها لغويًا و علميًا.

والشكر موصول لمن غذونا بغذاء الأرواح أساتذتي في كلية العلوم الإسلامية بدءاً بعميدها الاستاذ الدكتور **ضرغام كريم الموسوي** ومعاونيه المعاون العلمي الاستاذ الدكتور **مسلم مالك الأسدي**، والمعاون الإداري الاستاذ الدكتور **محمد الطائي** وكل الشكر والامتنان لقسم اللغة العربية وعلى رأسه الاستاذ الدكتور **حامد شهاب أحمد** رئيس قسم اللغة العربية الحالي، كما أشكر الاستاذ المساعد الدكتور **صفاء حسين لطيف** رئيس قسم اللغة العربية السابق، والأساتذة الأفاضل جميعًا وموظفي الكلية أجمع بما فيهم الأستاذ **محمد الفراتي**، و إلى السيّدتين الفاضلتين **الست هديل فائق مهدي، و الست ناهدة عبّاس راهي**، جزى الله الجميع عنّي خير جزاء المحسنين.

الخلاصة

تقوم هذه الدراسة على استقصاء طبيعة الصورة الثقافيّة التي رسمها ثلاثة من المستشرقين لمكة المكرمة التي تمثّل قلب العالم الإسلامي في رحلاتهم لها لأسباب ودواع مختلفة، بوصف هذه الصورة تشكل المرآة التي نرى فيها أنفسنا وذواتنا كعرب ومسلمين من خلال الآخر المختلف/ غير العربي.

وقد امتدت الرسالة على الثلاثة فصولَ وتمهيد، يوضح مداخل الدراسةَ ومصطلحاتها، واضطلع كل من الفصول الثلاث بإيضاح نمط مختلف من أنماط الصورة التي كانت حيادية تقوم على الكشفَ والمعرفة عند البريطاني(آرثر جون وافل)، ومغرضة عند الفرنسي (ليون روش) لقيامها على التبخيسَ، والحط من قيمة الآخر عند هذا المستشرق المعروف بجاسوسيته وخدمته للاحتلال الفرنسيَ، وبغضه للمقاومة العربية الإسلامية لهذا الاحتلال، وكانت طبيعة الصورة الثالثة تميل إلى (التحيّز) لصالح المكان وارتباطاته المتعلقة بعاداته ومعتقداته التي أعجب بها المستشرق الألماني(ليوبولد فايس)، ومال إليها بعد أن تخلى عن ديانته الأولى معتنقًا الإسلام.

إن الدراسة التي اعتمدت الوصف والتحليل منهجا للوصول إلى نتائجها أكدت ارتسام صور مختلفة لمكة في كتابات الرحالة والمستشرقين، وهي صور معبّرة عن دوافع وغايات مختلفة، لكنها مرتبطة بأصحابها وبثقافتهم وبمواقفهم، وينبغي على الدراسات الأكاديميّة أن تتصدى لمعرفة المزيد من النصوص التي يكتبها الآخرون، عن ثقافاتنا وآدابنا وعاداتنا وتقاليدنا.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	**١-٤**
التمهيد: مفاهيم أوليّة: الصورة، مكة المكرمة، أدب الرحلة، الاستشراق	**٥-٢٤**
الفصل الأول: أنموذج الصورة الحياديّة في كتاب:(رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة) لآرثر جون وافل.	**٢٥--٦٤**
المبحث الأول: النشأ والتكوين المعرفي.	٢٦-٤٠
المبحث الثاني: صورة مكّة في كتاب:(رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة) آرثر جون وافل.	٤١-٦٤
١-وصف الكتاب.	٤١-٤٢
٢-دوافع الرّحلة.	٤٣-٤٥
٣-صورة مكّة في كتاب(آرثر جون وافل).	٤٥
أ-لحظة القوة والثقة بالنفس.	٤٥-٤٦
ب-مقدمات الرّحلة.	٤٧-٤٩
ج-صورة مكّة.	٤٩-٥٠
١-الموقع والمناخ.	٥٠-٥٢
٢-عمران مكّة وأسواقها.	٥٢-٥٤
٣-حركة المجتمع ونشاطه.	٥٥
أ-الصلاة والعبادات.	٥٥-٥٧
ب-الإحرام وطقوسه.	٥٧-٦٠

ج-المجتمع وملامحه.	٦١-٦٤
الفصل الثاني: أنموذج الصورة المغرضة في كتاب: (اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام) ليون روش	**٦٥-٩١**
المبحث الأول: النشأ، والتكوين المعرفي.	٦٦-٧٢
المبحث الثاني: صورة مكة في كتاب ليون روش:(اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام).	٧٣-٩١
أ-وصف الكتاب.	٧٣-٧٦
ب-دوافع الرّحلة.	٧٦-٧٨
ج-صورة مكّة في كتاب(ليون روش).	٧٨
١-مقدمة الرّحلة.	٧٨-٧٩
٢-استراتيجية وصف مكّة.	٨٠
أولاً: مكّة من الداخل.	٨٠-٨٣
ثانيًا: مكّة من الخارج.	٨٤
أولاً: صورة المناخ.	٨٥-٨٦
ثانيًا: صورة الأسواق.	٨٧-٨٩
ثالثًا: صورة المرأة.	٨٩-٩١
الفصل الثالث: أنموذج الصورة المتحيّزة في كتاب (الطريق إلى مكة) لليوبولد فايس	**٩٢-١١٩**
المبحث الأول: النشأ والتكوين المعرفي.	٩٣-١٠٢
المبحث الثاني: صورة مكة في كتاب:(الطريق إلى مكة) ليوبولد فايس.	١٠٣-١١٩
أ-وصف الكتاب.	١٠٣-١٠٤
ب-دوافع الرّحلة.	١٠٤-١٠٦
ج-صورة مكة في كتاب(ليوبولد فايس).	١٠٦
١-مقدمة الرّحلة.	١٠٦-١٠٨

٢-صورة مكّة بين الواقع والتزيين.	١١١-١٠٩
٣-صورة الكعبة.	١١٤-١١١
٤-صورة المصلّين.	١١٧-١١٤
٥-صورة المرأة.	١١٩-١١٧
خاتمه البحث و نتائجه	١٢٢-١٢٠
قائمة المصادر والمراجع	**١٣٢-١٢٣**
Abstract	**A-B**

المقدّمة

المقــدّمة

اضطلعت الرحلات التي انبرى لها أشخاص معينون بمسؤولية التعريف بالجماعات المختلفة والبعيدة، فهي –بذلك- مصدر من مصادر المعرفة الاجتماعية والتاريخية والأدبيّة والجغرافية التي يسجّل من خلالها الرحالة مدوّناتهم الخاصة، ومشاهداتهم الطبيعيّة، وتجاربهم المعيشيّة المباشرة مع الناس في الأقاليم والبلدات التي وطأتها أقدامهم بدافع رغبة الاكتشاف ومعرفة الآخر عن قرب.

وبمرور الزمن استحالت الرحلات إلى جنس أدبي نثري رفيع يقبل عليه القرّاء، وإلى فن له من الخصوصيّة ما يميّزه عن الفنون الأدبية الأخرى، ويخصصه بِسماتٍ تمنحه الاستقلاليّة والاختلاف بحكم اشتراطه إلى مجموعة من المواضعات الأدبية، منها: اللغة الأدبيّة العالية التي يكتب من خلالها، والتنوع في أسلوب السرد القصصي والحوار والوصف، فضلا عمّا يقدمه أدب الرحلة من متعة ذهنيّة، ومن جديد المعارف التي تتشوّقها الأنفس الظمآى لمعرفة الآخر باختلافه الثقافي، وبتفاصيله التي ينقلها الرحالة الخائض لتجربة المعايشة بحُلوها ومرّها.

ولما كانت مكة هي قلب العالم الإسلامي، ومهبط الوحي، وموضع القداسة الذي يحج إليه المسلمون طلبا للمغفرة، والتماسا لرضا الرب؛ فقد كانت عند الأوربيين مكانا غامضًا يثير الدهشة والتساؤل والفضول، ويدفع المهتمين بالشرق من الغربيين إلى الرغبة باكتشاف هذا المكان المجهول، وكشف ما يكتنفه من أسرار وألغاز يجهلونها فتجعله مهوى أفئدة المسلمين، ومنتهى طماح في الوصول إليه.

ويحاول هذا البحث أن يستجلي صورة (مكة) من خلال رحلة ثلاثة من المستشرقين المنحدرين من أصول أوربيّة متنوّعة جمعتهم الرغبة في رسم صورة لمكة المكرمة، وإن اختلفت مواقفهم حيادا وسلبا وإيجابا، وهم كل من: الإنجليزي (آرثر جون وافل) والفرنسي (ليون روش) والألماني (ليوبولد فايس)، وتنبع أهمية هذه الدراسة من وصف ما كتبه هؤلاء المهتمون بالشرق الإسلامي وبشؤونه من أدب رحلي يشكّل مرآة لذواتنا كمسلمين نرى فيها أنفسنا من خلال الآخر المختلف، وما

يهمّنا من هذه الرحلات استجلاء أبعاد الصورة الخصبة، وأنماطها التي رسمها لمكة (قلب العالم الإسلامي) كل من هؤلاء الثلاثة، ونقل أبعادها للقارئ العربي انطلاقا من وصف أدب الرحلة بأنه خطاب ثقافي يطرح قضايا، وأفكارا كثيرة تتعلق بالعلاقة مع الآخر الشبيه أو المختلف، فضلا عن وصفه أدبا يهتمّ بالتواصل الحضاري وعوائقه بين الأمم والشعوب المختلفة، وهذا ماكان الدافع الحقيقي لهذا البحث الذي أسجّل الفضل في اختياري له لأستاذي المشرف (أ. د. علي محمد ياسين) الذي حثّني عليه، وشجّعني رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهتني متمثّلة بندرة المصادر والدراسات المكتوبة عن أدب الرحلة عموما في الأكاديميات العراقية، وعن رحلات المستشرقين للعالم الإسلامي.

ولم يجر اختيار النماذج الثلاثة المذكورة اعتباطاً، وإنما كان يقف وراء هذا الاختيار نوع التمظهر الذي يبدو على المكان (مكة المكرمة) في كل أنموذج، وهو تمظهر يختلف عن قرينه في كلّ أنموذج بسبب اختلاف موقف الذات المصوّرة.

وكما نوّهت إلى ذلك قبل أسطر، مما يشكل تنوّعا في الصورة الثقافية المرسومة للمكان المصوّر ببعديه الواقعي والخيالي.

وقد حاولت في هذا البحث الذي اعتمد منهجا يقوم على الوصف والتحليل والكشفَ عن صورة مكة، وتجلّياتها للقارئ العربي من خلال تمهيد، أوضحت من خلاله مفردات البحث الرئيسة ومصطلحاته، ومن خلال ثلاثة فصول تعقبها نتائج، وقائمة بالمصادر والمراجع المغذية للبحث.

وكان مدار الفصل الأول يقوم على استجلاء طبيعة الصورة(الحيادية، الموضوعيّة) التي شكّلها (آرثر جون وافل) في كتابه: رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، فقد تحدثنا عن آرثر جون وافل نشأته وثقافةُ وهي صورة حاولت نقل واقع مكة كما شهدها هذا الرحالة الذي دعته ظروف الكتابة ليكون موضوعيا نزيها فيما ينقل ويصور، أما الفصل الثاني فقد أخذ على عاتقه تبيان صورة مكة في رحلة الفرنسي (ليون روش) التي أسميناها الصورة (المغرضة) التي رسمها هذا الرحالة بدوافع

ترتبط بسيرته، وثقافته التي تحدّثنا عنها في المبحث الأول من هذا الفصل، في حين كان مدار الفصل الثالث طبيعة الصورة (المتحيّزة) التي كان قد حدد أبعادها المستشرق الألماني (ليوبولد فايس) الذي دخل الإسلام بعد إطلاعه وإعجابه بأبعاده الروحية والثقافية والأخلاقية، وفي ذلك أكثر من دلالة على تحيّز الصورة المرسومة إلى ثقافة الإسلام والمسلمين، وقد تبع ذلك إيجاز لأهم النتائج المسجلة، وسرد لمصادر البحث ومراجعه.

وإذا كان قد بقي للباحثة من شيء في مقدّمة هذا العمل؛ فهو الشكر والامتنان للذين أعانوني على إنجاز هذا البحث، وأخصّ بالشكر والثناء الجميل الأستاذ الدكتور(عليّ محمد ياسين) الذي كان له فضل اقتراح الموضوع، ومتابعة كتابته من خلال إشرافه المباشر، ومراجعة فصوله على أحسن وجه، والباحثة بعد هذا تسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسنًا، وأن يجعل منه شيئًا نافعًا للمعنيين بالثقافة و الدراسات كافة، إنّه سميع مجيب.

الباحثة

التمهيد

مفاهيم أوليّة:

-الصورة.

-مكة المكرمة.

-أدب الرَّحلة.

-الاستشراق.

التمهيد : مفاهيم أوليّة: الصورة، مكة المكرمة، أدب الرحلة، الاستشراق

أ- الصـــــورة:

يعدّ مصطلح الصورة من المصطلحات الداخلة في ثقافتنا العربية بتأثير المد الفكري والأدبي الغربي[١]، أمّا مبحث الصورة ومفهومها، فهو من المفاهيم الضبابية الملتبسة في الدرس الأدبي والنقدي، والدليل على ذلك كثرة الكتب المخصصة لذلك، واختلاف تنظيرات الدارسين وتطبيقاتهم لهذا المفهوم من خلال النماذج الفنية المختلفة التي قاموا بدراستها.

وعند العودة إلى المعاجم العربية المعتمدة سنجد أنّ لفظة (صورة)قد وردت على ظاهرها في معجم لسان العرب لابن منظور، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيأته، وعلى معنى صفته، نقول صورة الفعل كذا وكذا أي وهيأته، وصورة الأمر كذا وكذا، أي صفته، والمصور من أسماء الله تعالى، وهو الذي صوَّر الموجودات جميعها، ورتبها فأعطى كُلُّ شيءمنها صورة خاصة وفريدة، ويعلّق ابن منظور بخصوص الحديث النبوي: خلق الله آدم على صورته، فيحتمل أن الهاء راجعة على اسم الله تعالى، أوأن تكون راجعة على آدم فيكون المصدر مضافًا إلى الفاعل لأنه سبحانه هو المصور، كما في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[٢]، والجمع صوَرٌ، وصُوْرٌ، وقد صَوَّرَه فَتَصَوَّرَ، والصِّورُ بكسر الصاد لغة في الصُّوَر، جمع صُورَة،ومنه قوله تعالى: ﴿ ِصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾[٣] بفتح الواو، إذ لا نعلم أحدًا من القراء قرأها فأحْسَنَ صُورَكُمْ[٤]، وفي المعجم الوسيط صوَّره: جعل له صورة

---

(١) ينظر:الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م، ص ١٧٢.
(٢) سورة الانفطار : آية ٨.
(٣) سورة التغابن : آية ٣.
(٤) ينظر:لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ) اعتنى بتصحيحه (أمين محمد عبد الوهاب –محمد الصادق العبيدي)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت –لبنان، ط٣،١٩٩٩م، ج٧، مادة (ص و ر) .

مجسّمة، وصوّر الشيء أو الشخص، رسمه على الورق أو الحائط، والتصوير نقش صورة الأشياء أو الأشخاص على لوح أو حائط[١]، ويعرفها الراغب الأصفهاني بقوله: الصورة ما تنقش به الأعيان، ويتميز بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما: محسوس تدركه الخاصّة والعامّة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كصورة الإنسان والفرس والحمار، والثاني: معقول تدركه الخاصّة دون العامّة، كالصورة التي اختصّ بها الإنسان من العقل والرؤية والمعاني التي خصّ بها شيئا بشيء، فصورة الشجرة شكلها، وصورة المعنى لفظه، وصورة الفكرة صياغتها[٢].

وقد عّرفت الصورة في المعاجم المختصة بالمصطلحات بأنها: (إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تنبثق من المقارنة، وإنما من الجمع بين حقيقتين واقعتين بعيدتين تتفاوتان في البعد قلّة وكثرة، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقتين واقعيتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل)[٣]، أما التصوّر، فهو مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها المرء، وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته، والتصوير هو إبراز الصورة إلى الخارج بشكل فني من خلال الرسم والنّحت أو النقش أو من خلال اللسان كالوصف أو الاستعارة أو البيان والرموز الأدبية وكثير ممايشترك به الوصف و الحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، فالتصوير شكلي وأداته الفكر واللّسان، وأما التصوّر، فهو عقلي، وأداته الفكر فقط[٤]، وبذلك فمفهوم الصورة يتمثّل بأن كُلَّ صوَّرة تنبني على لحظة وعي بها مهما كان حجمه، وإن هذا الوعي مقرون بخيال

(١)المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى –أحمد حسن الزيات، المكتبة الإسلامية، تركيا- إسطنبول، ط٢، ١٩٧٢م،ج١،ص ٥٢٨.

(٢)ينظر:مفهوم الصورة وحضورها في النقد الأدبي عند العرب و الغربيين ، د.عمر بلمقنعي ، التواصل في اللغات و الآداب، جامعة باجي مختار عنابة (قسم اللغة العربية و آدابها)، عدد٤٦، جوان ٢٠١٦، ص٤٠.

(٣) ينظر:معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م (د.ط) ص٢٣٧.

(٤)مفهوم الصورة وحضورها في النقد الأدبي عند العرب و الغربيين، ص٤١.

هادف فعّال يحاول النفاذ إلى وعي المتلقي والتأثير به في شتى السبل، ولا سيما إذا اكتنف هذا الخيال إبداع مواز له في القوة والتأثير.

ومن هنا جاءت قيمة الصورة الفنية المتأسسة على النصوص الأدبية، وضرورة إخضاعها للدرس والتقنين المعرفي، فإذا كانت الصورة هي:(الصوغ اللساني المخصوص الذي بوساطته يجري تمثّل المعاني تمثلا جديدا بكرا بما يحيلها إلى صور مرئية معبرة، وذلك الصوغ المتميز والمنفرد هو في حقيقة الأمر عدول عن صيغ إحالية من القول إلى صيغ إيحائية تأخذ مادتها التعبيرية في تضاعيف الخطاب الأدبي)[١]؛فإن النصوص التي يدرسها الصورولوجي، أي(العالم بالصور)لا تقاس من زاوية أدبيّتها أو لا أدبيّتها، أو من باب جماليتها أو لا جماليتها، فنيتها أو لا فنيتها، بل من خلال الكشف عن الأثر الأيديولوجي لصورة الآخر على جمهور معين، وبذلك تتحوّل الصورة إلى مؤشر مضيء لأيديولوجيا معينة(التسامح وقبول الآخر مثلا أو التعصب والعنصرية وازدراء الآخر)،أو قد تتعدى الصورة هذا المجال لتكون دالا مضيئا للمخيال الاجتماعي المشترك بين البشر[٢].

ولعلّ هذا ما يؤكد المبدأ الرافض لاستقلال الأعمال الأدبية عن السياق العام الذي تنبثق عنه، وكون التعامل مع هذه الأعمال على اعتبار الاحتفاء بوظيفتها الجمالية الخالصة التي تشكل الصورة ومباحثها أهم ركائز هذه الوظيفة تعاملا مرفوضا لأسباب عدة، لأن العمل الأدبي والأشكال الثقافية ما هما إلا مزيج غير نقي من الخيال الخلاق والواقع الفعلي الذي تشكل في أحضانه[٣].

(١) الصورة الشعرية في النقد الحديث، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٤م، ص١٢.

(٢) ينظر:الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، عبد الرحمن بوعلي، مجلة دراسات وأبحاث، جامعة الشارقة(الإمارات العربية المتحدة)، عدد٢أفريل، مجلد١٢، سنة ٢٠٢٠م، ص٨١.

(٣)ينظر: صورة الآخر في الخيال الأدبي، طوني موريسون، ت: محمد مشبال، دار كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨م، ص١٠.

ومما تقدم يتبين لنا أن الصورة ما هي إلا معنى لفكرة أو مفهوم أو شخص ما، وهو ما يستدعي استحضار الأفكار والمفاهيم التي يقترن بتخيّلها وإدراكها لتصبح نموذجاً دالاً قابلاً للتمثّل عبر عملية التخيّل واستحضار المفهوم، كما أن تمثيل الأفكار والمفاهيم والأشخاص لا يتم إلا عبر استدعاء الصور، وهو ما يعني أن الأفكار والمفاهيم والأشخاص عصية في ذاتها على التوصيف والحضور، وبهذا فالتصوير سيكون بمثابة استحضار لما هو غائب(١).

إن الصورة لا تنحصر في هذه الدراسة بدراسة الجزئيات البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية كما هو معتاد في الدراسات البلاغية التقليدية، بل تقوم هذه الدراسة على توسيع مفهوم الصورة في صيغتها البلاغية بحيث يصبح مصطلح الصورة قابلاً للدلالة على الصور الذهنية التي تشكلها الآداب والفنون في مجالات وأغراض متعددة ومعقدة، حيث إن الصورة الذهنية(image) ترتبط عند الدارسين عادة بالخيال، ويقول الدكتور جابر عصفور عند دراسته للصورة الفنية في التراث النقدي العربي:(إن علاقة الاشتقاق بين كلمتي(imagination) و(imagery) تعني الصلة الوثيقة بين كلتيهما، وتوضح - بشكل ضمني- أن أي مفهوم للصورة الشعرية لا يمكن أن يقوم إلاّ على أساس مكين من مفهوم متماسك للخيال الشعري نفسه، فالصورة هي أداة الخيال، ووسيلته، ومادته الهامة التي يمارس بها، ومن خلالها فاعليته ونشاطه)(٢).

وبما أن الدراسة لا تتخذ من متن شعري ما ميدانا لها؛ فهي ملزمة ببيان صورة مكة في ما دوّنه الرحالة المستشرقون عند زيارتهم لمدينة مكة المكرمة بوصفها مركز التمدن الإسلامي، فهي مهبط الوحي ومقصد الحجيج المسلمين، وبها بنى إبراهيم أبو الأنبياء أول دار له، وفيها الكعبة المشرفة التي قدسها العرب قبل الإسلام وبعده، ومن بين طرقاتها وأزقتها القديمة والضيقة انطلق الإسلام إلى العالم الواسع، وانتشر في

(١) ينظر:الكلمات المفاتيح، ريموند وليمز، ترجمة: نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٦١ ومابعدها.
(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، سابق، ص١٤.

الأصقاع، فظل معتنقوه ومعارضوه يصوبون أنظارهم صوب هذه البقعة التي غيرت النظرة القديمة إلى العالم، وظلت على مدار السنين بمثابة السر الدفين الذي يطمح أن يكشف أسراره المبغضون والمحبون على حدّ سواء.

ب – مكّـــة المكـــرمة:

إنَّ مكَّة المكرَّمة قد عرفت عند العرب قبل الإسلام، فهي من أهم المدن الثقافية والتجارَّية، وأهم المدن من حيث القداسة والعراقة، فضلاً عن كونها تعدّ من أعظم المدن عند المسلمين في الوقت الحاضرإلى جانب المَدينَة المنورة، والمسجد الأقصى المبارك بمدينة القدس، وهو ثالث المساجد في الإسلام، وكذلك يعد من أهم الديار من حيث القدسية، وبعد أن أصبحت مكة قبلة المسلمين أضحت ملتقى الشعوب الإسلامية كلها إذ تتطلع قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لأداء مناسك الحج والعمرة، حيث أقسم الله تعالى بها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، وبأكثر من اسم، لمَا لها من أهمية وفضل وعظيم قدر عند الله –تعالى- وفي قلوب المسلمين، وكان الحج إليها إحدى فرائض الإسلام الخمس التي فرضها الله تعالى على من دان بهذا الدين.[١]

و لايخفى إنّ مكَّة (مهد الرسالة، حيث ولد الرسول(ص)فيها، فقد سميت بأم القرى و تعدّ قبلة للمسلمين)[٢]، وفيها مولد رسول الإسلام محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي مُتنزّل القرآن ومهد الإسلام، وقد سمّى الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) سكان المدنية (أهل الله)، وبها وبمكة تُضاعف الحسنات، وإن صلاة واحدة في المسجد الحرام بمكة بمائة ألف صلاة فيما سواه،كما وصفها الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)بقوله:(إنّك لخير أرض وأحب أرض إلى الله،

(١)ينظر: من مكة إلى لاس فيجاس (أطروحات نقدية في العمارة و القداسة)، د. علي عبد الرؤوف، دار الكتب المصرية (الزيتون القاهرة)، ط٢ (المحرم١٤٣٦هـ –نوفمبر ٢٠١٤ م)، ص٣٠.
(٢)مكّة المدينة المقدسة، ضياء الدين سردار (ت: د. هبة رؤوف عزت)، (لبنان – بيروت)، ط١، ٢٠١٧، ص٢٧.

وإنَّ مكَّة المكَّرمة تعدُّ واحدة من أعظم مدن الأرض، ولحواضرها مكانةً وشهرة، ولم تحظ بمثلها أي مدينة في العالم بمثل ماحظيت به مكَّة من تكريم ،وقد بارك الله فيها من قبل ومن بعد)[١].

وأوّل من سكن مكَّة المكرمة هو إسماعيل(عليه السلام)وأمهُ هاجر، حين تركهما إبراهيم(عليه السلام)في وادي غير ذي زرع امتثالا لأمر الله (عزّ وجل)[٢] ، وقد جعلها الله (سبحانه و تعالى) أول مكان يعبد فيه بداية من النبي آدم (عليه السلام)، كما فضلها الله على غيرها من بقاع العالم طهرًا ومنزلة وقدسية، وجعلها قبلةً المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها، بعد أن أوحى الله لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) أن يقيما بناءَ البيت مرةً ثانية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ﴾[٣].

وقد أورد بعض المفسرين أقوالاً كثيرة في تسميتها (بكة) منها،أن بكة هي مكة، وينقل الطبري المفسّر قائلا:(إنّ الميم على هذا مبدلة من الباء، قالوا: طين لازبٌ ولازم)[٤]، وإذا كانت مكَّة سميت بذلك لقلة مائها، أو لأنها تملأ المخّ من العظم بسبب ما ينال من يقصدها من أهوال السفر ومشقته، فإن بكة قد تكون مشتقة من البك أي الازدحام، سميت بكة لازدحام الناس في موضع طوافهم[٥].

وهكذا، فان مكَّة المكَّرمة تعدَّ من أقدس بقاع الأرض التي شرفها الله بوجود بيته المحرم المتمثل بالكعبة المشرفة فيها قبلة المسلمين كافة، كما جعلها الله مثابة للناس وأمنًا يأتون إليها من كلّ فج عميق إذ ان الله شرفها ورفع مقامها رفعة لتمثل

(١)من مكة إلى لاس فيجاس، ص٣١ .
(٢)مكة المكرمة تاريخ ومعالم، إعداد د. محمود محمد حمو، ط٥ ،١٤٣٢هـ ، ص٨.
(٣)سورة آل عمران: آية ٩٦.
(٤)الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تح : د.عبد الله بن عبد المحسن الزكي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ج٥، ص٢٠٨.
(٥)ينظر: المصدر السابق، ص٢٠٨.

مركز جذب قوي من الناحية العمرانية (السكان) والناحية الاقتصادية وان مكَّة أصبحت بمرور الزمن تعكس صورة المدينة الإسلامية ذات الرمزية العالية لقيمتها الروحية والثقافية.

ولقد بدا الاهتمام واضحاً بمكة منذ القدم، إذ كان الإخباريون واللغويون يقومون بالبحث عن أسماء مكَّة ومعانيها التي بلغت حوالي ثلاثين اسمًا من أسمائها المختلفة، وبعضها مأخوذة في القرآن، والسنة النبوية الشريفة، فضلاً عما ذكر في كتب الإخباريين الأوائلَ وقد كانت أسماؤها في القرآن ثمانية أسماء واضحة بصريح اللفظ[١]، ومنها كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[٢]

وقد عُرفت لمكة أسماء كثيرة كانوا يطلقونها عليها، منها: (البلد)، إذ كانت مركزًا حضريًا وتجاريًا، وكذلك (القرية) كمكان يقصد الناس إليه أفواجًا كما يسيل الماء إلى بحيرة، وكانت تسمى (بكة)، كما ذكر في الإنجيل: (طوبى لأناس عزّهم بك طرق بيتك في قلوبهم عابرين في وادي البكاء (بكة) يصيرونه ينبوعًا... ويربط بعضهم بين بكة ونبات البلسان أوالبلسم، على إنها شجرة لها لحاء تسمى الشجرة الباكية أوالصخور التي يخرج منها الماء، وبكة هي المكان المزدحم، وقد كان الإغريق يترجمون لفظة بكة بأنها (وادي البكاء)، وقد وجدت لبكة معان كثيرة ارتبطت بها منها مثلا: البكاء والحزن والرثاء، وقد كان شكل وادي بكة بنيانًا مكعبًا اسمه الكعبة، وفي العربية تم استبدال الميم بباء بكة فغدت مكة[٣].

(١) ينظر: مكة و علاقاتها بالحواضر الحجازية و الدول المجاورة من (القرن ١٩ق.م إلى القرن ٧)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، سلوى بوشارب بإشراف (د. الطاهر دراع)، ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص٢.
(٢)سورة الفتح: آية ٢٤.
(٣)ينظر: مكَّة المدينة المُقدسة، ص٥٤.

أما في السنة فقد ورد في قوله:(إن الله حبس على مكة القيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين و إنها لن تحل لأحد... إما أن يفدى و إما أن يقتل)[١]، وقد جاء اختلاف الإخباريين في عدة أقوال منها: يرى بعضهم أن لفظ مكَّة مأخوذ من تمككْتَ المخ من العظم تمكُكا إذا استخرجته منه، لأنها تمكّ الفاجر عنها، فتخرجهُ منها، ويؤكد ذلك قول الراجز في تلبيته :

يَا مَكَّةُ الْفَاجِرَ مُكِّي مَكًّا وَلَا تَمُكِّي مُذْحِجًا وَعَكًّا

وقد جاءت سبب التسمية بهذا الاسم لعدة أسباب منها: لازدحام الناس بها، وهي على ذلك مشتقة من البك يقال بك الناس بعضهم بعضًا، أي تدافعوا تزاحموا ، ومنه قول الراجز الذي أنشده ابن هشام:

إذَا الشّرِيبُ أَخَذَتْهُ أَكّهْ فَخَلّهِ حَتّى يَبُكّ بَكّهْ[٢]

ورأى آخرون أن سبب التسمية لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدقها فما قصدها جبار إلا أهلكه الله، وحجتهم إن العرب كانوا يبدلون الميم باءً، فيقولون ضربة لازم ولازب لقرب المخرجين، وهناك من يرى أنهما (مكة وبكة) اسمان والمسمى بهما شيئان مختلفان، لأن اختلاف الأسماء موضع لاختلاف المسمى فقد اختلفوا –ايضًا- في المسمى، فمكَّة اسم البلد كله، وبكة اسم البيت وهذا ما ذكره الطبري، وذهبوا إلى أن مكة الحرم كله وبكة المسجد منه، ومن أسمائها البلد الأمين، ورد في قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾[٣]،والبلدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤]، فالبلدة في اللغة هي البلد، وقيل أن البلد أعم والبلدة طائفة من البلد، وذكر أمية بن أبي الصلت:

---

(١)مكة وعلاقاتها بالحواضر الحجازية، ص ٢.
(٢)ينظر:مكة و علاقاتها بالحواضر الحجازية ، ص٤.
(٣)سورة التين: آية ٣.
(٤)سورة النمل: آية ٩١.

أَبا مَطَرٍ هَلُمَّ إلى صَلاحٍ فَتَكفيكَ النَدامى مِن قُريشِ
وَتأمَنَ وَسطَهُم وَتَعيشُ فيهِم أَبا مَطَرٍ هُديتَ بِخيرِ عَيشِ
وَتَسكُنُ بَلدَةً عَزَّت لِقاحاً وَتَأمَنُ أَن يَزورُك رَبُّ جَيشِ (١)

وهناك اسم آخر أطلق على مكَّة وهو أم القرى كما جاء ذكرها في قوله تعالى :﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(٢)وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٣)، وقد ذهب الطبري في تفسيره بخصوص الآية السابقة إلى أن مكّة هنا تبدو كأنها مركز الأرض التي تنطلق منها دعوة الرسول الأكرم لتعمّ مشارق الأرض ومغاربها ممّا حولها أي من حولَ أم القرى من سائر الناسِ، وقد ورد اسمٌ آخر لمكَّة هو: اسم القرية كما ذكر في قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾(٤)

وقد فسرت هذه الآية بأن مكَّة (القرية) كانت آمنة مطمئنة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنًا فسميت بذلك لآمنها(٥)، وقد أعطى القرآن أسماء لمكَّة واضحة وصريحة فيما حاول الإخباريون إعطاء تسميات ومدلولات أخرى لمكَّة لم يتمكنوا من التعريف عنها بوضوح ومن هذه الأسماء مثلا: البائسة، قال احدهم : لأنها

(١)ينظر:مكَّة و علاقاتها بالحواضر الحجازية، ص٤-٥.
(٢)سورة الأنعام: آية ٩٢.
(٣)سورة الشورى: آية ٧.
(٤)سورة النحل : آية ١١٢.
(٥)ينظر: مكَّة وعلاقاتها بالحواضر، ص٦.

تمس من ألحد فيها اي تهلكه وتحطمه.وقد ورد اسم آخر لمكَّة المسجد الحرام مأخوذ من قوله تعالى:﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾(١)

وقد انطلق الإسلام من مكَّة المكرمة إلى سائر أرجاء الجزيرة العربية، ومن ثم إلى بلاد الشام ومصر والمغرب ومختلف مناطق العالم(٢).

أما حرم مكّة (فهو ما أحاط بها، وطاف بها من جوانبها، وهو محدد بأنصاب من جميع جوانبها، وقد اختلف في أسباب حرمة مكّة وقدسيتها، إذ ذهب صاحب كتاب أخبار مكَّة إلى أنه لما خاف آدم (عليه السلام) على نفسه من الشيطان استعاذ بالله منه، فأرسل الله ملائكة حفّوا بمكة من كلُّ جانب، ووقفوا حواليها، فحرّم الله الحرم من حيث كانت الملائكة وقفت)(٣).

بينما ينقل صاحب كتاب(شفاء الغرام) قوله: إن إبراهيم الخليل(عليه السلام)(لما وضع الحجر الأسود في الكعبة حين بناها أضاءها الحجر يمينا وشمالاً وشرقًا وغربًا، فحرم الله الحرم من حيث انتهى نور الحجر الأسود)(٤)، ويضيف صاحب (شفاء الغرام) أن إبراهيم -عليه السلام- أول من نصب الحرم المكي، وأن جبريل(عليه السلام)هو من دلّه على ذلك، ثم أعاد نصبها لاحقًا قصي بن كلاب، ثم قريش بعد أن نزعتها، ثم أمر بنصبها الرسول الأكرم محمد (ص) عند فتح مكة، ثم ولاة أمور المسلمين وزعماؤهم(٥).

---

(١)سورة الفتح :آية٢٧.
(٢)ينظر:مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير و ابن بطوطة، د.حسّان خلاق، بيروت،ط١، ١٩٩٦م ،ص٩.
(٣)ينظر:أخبار مكّة وماجاء فيها من الآثار، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي ت٢٥٠هـ، تح :عبدالملك بن عبدالله بن دهيس، مكتبة الأسدي، الرياض،ط١، ٢٠٠٣، ص٦٨٠.
(٤)شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي تح :لجنة من العلماء، القاهرة، البابي الحلبي، ١٩٥٦(د.ط)، ج١، ص١٠٥.
(٥)ينظر:شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ص١٠٦.

ومكّة المكرمة تُعدُّ مكانا حميما روحانيا مقدسا، وهذهِ المكانة متأصّلة في قلوب من المسلمين مما يجعل كراهية كل من أساء إلى هذا المكان مستحقة، وهذا المكان يستحق الحفاظ على مقوماته وعناصره وأجوائه وعمرانه وعماراته وصلواته، وكلُّ ما ارتبط بالتجارب الروحانية والحسية والعقلية فيه(١).

وهكذا فإن مكّة تشكل مركز الثقل في العالم الإسلامي مكانيًا وروحياً، إذ يستمد منه المسلمون حسهم الوجودي والعقائدي، وإن الاهتمام بمكَّة من قبل المسلمين هو أمر بديهي نظرًا لمنزلتها العميقة في النفوس، لكن ما يثيرالتساؤل والدهشة؛ هو اهتمام الأجانب والرحالة والمستشرقين من غير المسلمين بهذه المدينة الرمزية العظيمة، وإيلاؤهم إياها فائق العناية والاهتمام والرصد، ومحاولة الكشف عن أسرارها، وهو ما يحاول أن يجيب عنه هذا البحث في الصفحات القادمة.

ج- أدب الـــــرحلـــــة:

رحل من الرحل، وهو: "مركبٌ للبعير و الناقة، وجمعه أرحل و رحالٌ، و الرحالة : نحوه، كل ذلك من مراكب النساء، وأنكر الأزهري ذلك، قال: الرَّحل في كلام العرب على وجوه، وهو كما قال أبو عبيدة : من مراكب الرجال دون النساء، وأما الرِّحالة فهي أكبر من السَّرج وتُغشَّى بالجلود وتكون للخيل والنجائب من الإبل، وحكى سيبويه عن العرب: وضعا رحالهما يعني رحلي الراحلتين، والترَّحُّل والارتحال: الانتقال، وهو الرِّحلة والرُّحلة، والرِّحلة:اسم للارتحال للمسير، يقال دنت رحلتنا، ورحل فلان وارتحل وترَحَّل"(٢).

ويرد في المعاجم اللغوية الأصل اللغوي للفظة رحلة من الثلاثي (رحل)، وهو بتعبير العلامة ابن فارس: "أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على مُضيّ في سفر يقالُ: رحل يرحلُ رحلة، وجملٌ رحيل: ذُو رحلة، إذا كان قويًا على الرّحلة، والرّحلةُ: الارتحال"(٣).

---

(١)ينظر: من مكّة إلى لاس فيجاس، ص١٥٩.
(٢)لسان العرب، ج٥، ص١٦٨-١٧٢.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٢، ص٤٩٧.

فابن فارس يجمل الأصل اللغوي في الارتحال والمضي، منه قوله تعالى : ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾[١]، (فالرحلة، وهي بكسر الراء وضمها بمعنى الانتقال، بالضم للتعبير عن المرة الواحدة، وبكسرها اسم للارتحال للمسير كما يقال: دنت رحلتنا، واشتق من المادة فعّال فقيل: رحّال أي عالم بالرحيل مجيد له وألحقت التاء بها للتعبير عن المبالغة وكثرة الارتحال[٢]، وإن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للرحلة وأدب الرحلة واضحة في المفهوم والمعنى العام ، فقد جاء في المعجم الوسيط أن الرحلة كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى.

وعليه فأن أدب الرحلة جنس أدبي شابَه التنوع والتفاوت والاختلاف الكبير تبعًا لاختلاف التصوّر لهذا النوع من الأدب وإطاره العام، واختلاف تقاليده العامة ومحدداتها المنهجية عن غيره من أنواع الأدب، باشتماله على جميع تلك الأنواع في إطار واحد هو إطار الكتابة عن الرحلة)[٣].

ومما يميز أدب الرحلة اشتماله على جانب كبير من الطرافة؛ لأنه يشتغل على تصوير ما للآخر من خصوصية تجعله عصيا على التصنيف ضمن خانة محددة ضمن أجناس الأدب المعروفة؛ لأن هذا الأدب، وإن اشتمل على عنصري السرد والحكي، فإنه يرسم لنفسه عالمه الخاص والمختلف عن الأجناس الأخرى[٤]، ولذا فقد ذكرت لأدب الرحلة تعريفات كثيرة منها وصف الرحلة بأنها:(خطاب تنشئه ذات مركزية هي ذات الرحالة ، تحكى فيه أحداث سفر عاشته وتصف الأماكن المزورة والأشخاص الذَّين لقيتهم، وماجرى معهم من حديث، وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ و إمتاعه)[٥]، والرحالة من يخرج إلى بلد آخر أو أكثر، والرحلة:(انتقال فرد أو جماعة أو عائلة أو

---

(١)سورة قريش ، آية ٢.
(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ح٢، ص٤٩٨.
(٣) الآخر في أدب الرحلة دراسة أنثروبولوجية، د. وائل بن يوسف العريني، دار المتوسطة للنشر، ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م ، ص٤٥
(١) ينظر: أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في مرآة الرحلة الغربية المعاصرة: سعيد بنسعيد العلوي، دار رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢م، ص ١٧ .
(٥)ينظر:الآخر في أدب الرحلة، دراسة أنثروبولوجية، ص٤٣-٤٤.

قبيلة أو أمة من مكان إلى آخر لمقاصد مختلفة أو أسباب متعددة)[١]، ولذا توصف الرحلة بأنها شكل أدبي قديم وأصيل، بل هي أحد الأشكال الكبرى الأم للأدب،وهي:(كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وماشاهده، وعاشه من أحداث مازجًا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم)[٢].

ولما خلق الإنسان محبًا للحركة والتنقل من بداية الخليقة إلى وقتنا الحاضر بحثًا عن الغاية التي خلقه الله لأجلها، وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى، فالحركة والتنقل ستكون روح الحياة وهي سمة أساسية في رغبات الجسد البشري، وأنّ الإنسان منذ أن يولد حتى يموت في رحلات دائبة، فقد تتغير بمرور الأيام وبتغير الظروف والأحوال لحظات ميلاده فتعد هذه رحلة من رحم الأم إلى دنيا البشر، إلى رحم الأرض تمهيدًا لرحلة نهائية وسرمدية.

وأنّ التنقل ديدن الإنسان في أغلب بقاع الأرض منذ خلق الله آدم، وأن العرب منذ ماقبل الإسلام كانت لهم تجارة نشطة، سافروا لها خارج أوطانهم برًا و بحرًا، وكان للعرب رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق والشام و اليمن، وإن لم تدون أخبار هذه الرحلات تدوينا خاصًا شاملاً لها أو جامعًا، اللهم إلا ماورد متناثرًا في كتب الشعر وكتب اللغة والأخبار[٣]، وقد ذكر القرآن الكريم بصورة صريحة رحلة السير وهي من رحلات التنقل وخطاب الله تعالى واضح وصريح للسعي في الأرض و السير في البر وركوب الفلك وخوض البحار، ولن تبلغ الرسالة كافة الخلق إلا بالسفر وقطع المسافات والطواف بالأمصار شرقا وغربا، وكانت إحدى أسس الإسلام الخمسة هي حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا[٤]، وكذلك أصبحت عادة طلب العلم أن يسيحوا في البلاد ليجالسوا العلماء وليمشوا في مناكب الأرض.

---

(١)كتابات الرحالة مصدر تاريخي، د. علي عفيفي علي غازي ،كتاب المجلة العربية، ٢٦٢، ص٩.

(٢)المصدر السابق ، ص٤٥.

(٣)ينظر: أدب الرحلة في التراث العربي ، فؤاد قنديل ، دار العربية للكتاب ، ط٢، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م يوليو، ١٧-١٨، ٢٥-٢٦.

(٤)أدب الرحلة في التراث العربي، ص٣٠-٣٣.

وتتمثل واحدة من أهم الرحلات التي جاء الإسلام بها بالذهاب إلى الأماكن المقدسة ومنها فريضة الحج التي وجب الإسلام أداءها على المؤمنين تلبية لنداء الرحمن وتوبة وتطهيرًا للنفس من الذنوب والمعاصي، عند ذهاب الناس للحج وتحمل المَشقات وأكدار الطريق والصعاب راضين مسرورين بذلك.(١)

ويمكننا القول ان كتابات الرحالة الأوروبيين في العصور الوسطى وفي العصور الحديثة المعنية بالتواصل الثقافي بين أوروبا والشرق كان لها دور في زيادة معرفة الغرب بجغرافية الشرق، وهي كتابات تدخل ضمن أدب الرحلة الذي تطور في الأزمنة الحديثة ليكون توظيفا للمعرفة لصالح الاستعمار الأوروبي في بدايات دخوله العسكري إلى الأوطان الإسلامية. ومن الجدير بالذكر، فان كتب الرحلات ليست كتب تاريخ، ولكنها مصادر مهمة للمؤرخ؛ لأن الرحالة في العادة تستهويهم جوانب دون أخرى من المجتمعات والناس والأشياء دقيقة وعميقة، وهذا دليل على أن نصوص الرحلة وثيقة تاريخية مهمة يستفيد منها المؤرخ، ودارس التاريخ على حد سواء، ولذا توافد عدد كبير من الرحالة والمستشرقين من مختلف الاتجاهات، ولأهداف مختلفة صوب البلدان العربية، وكان لمكة حصة الأسد من هذه الرحلات التي ما زالت تشد إليها الرحال حتى يومنا هذا، إلى درجة لا يمكن معها إحصاء بيبلوغرافيا الكتب والمدونات والمصنفات والخرائط الغربية حول مكة المكرمة، إذ لم يشهد التاريخ اهتماما بفضاء مكاني معين كالذي شهدته معا مدينتا مكة المكرمة والمدينة المنورة على الرغم من صعوبة الكتابة -آنذاك- لارتباطها بأسباب كثيرة مثل وجود غير المؤمنين بالإسلام بديار المسلمين المعروفة بالظروف الجوية القاسية، قياسا بأجواء أوربا وما ترتب على ذلك من تفشي الأوبئة والأمراض(٢)، وسوى ذلك من أمور أخرى تعقد من مهمة الرحالة وتحبط من عزائمهم.

(١)كتابات الرحالة مصدر تاريخي، ص٢٥.
(٢)ينظر:البقاع المقدسة في الرحلة الغربية – رحلة في بلد العجائب- حج مسيحي إلى مكة والمدينة، د. مكي سعد الله، مجلة دراسات استشراقية، ع١٦ خريف ٢٠١٨م، ص٤١.

د- الاستشـــراق

إن كلمة (استشراق) مصدر للفعل (استشرق) و المعنى طلب الشرق و أصله فعل ثلاثي(شَرَقَ) مزيد بثلاثة أحرف، الألف و السين و الثاء و الذاكرة المعجمية يشير إلى أن لفظه (شرق) من شرقت الشمس تشرق شُروقًا و شرُقًا أي طلعت و اسم الموضع المشرق، الشرَّف جهة الشروق الشمس، و شرَّق أخذ في ناحية المشرق[١].

ترد لفظة الاستشراق عند المهتمّين في سياقات مختلفة، منها على سبيل المثال قولهم :(استشرق : طلب علوم الشرق و لغاتهم، فيقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة، والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق، ولغاته وآدابه)[٢]، وبناء عليه، فالاستشراق هو طلب التخصص في علوم الشرق وحضارته وآثاره وفنونه وعلومه المختلفة، وأطلقت كلمة مستشرق لأول مرة سنة ١٦٣٠ م على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشرق، وعرّف قاموس اكسفورد الجديد معنى المستشرق بأنه:(من تبحر في لغات الشرق وآدابه، وكانت تطلق في البداية على من تخصص في فقه اللغات الشرقية، واستعملت كلمة الاستشراق لأول مرة في معجم الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨م بعد أن شاع استعمالها، وأصبحت اللفظة دالة على التخصص في الثقافات الشرقية، فقد كان ظهور لفظة الاستشراق واستعمالاتها الأولى أنها كانت أعم وأشمل من المعنى الذي تدل عليه اللفظة، وكانت مهمة علم الاستشراق الأولى ذات طبيعة ثقافية استكشافية)[٣] .

ويرى بعض الباحثين أن الاستشراق علم الشرق، أو علم العالم الشرقي، وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق، والمفهوم

---

(١)لسان العرب، ج٧، ص٩٥.

(٢)فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، د. أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربي ، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص٢١-٢٢.

(٣)الاستشراق (تعريفه ، مدارسه ، آثاره)، د. محمد فاروق النبهان، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم، والثقافة إيسيكو، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص١١.

الخاص للاستشراق يعني: الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده و تشريعاته[١]، وليس للاستشراق ارتباط بالعصر الحديث فهو(ليس أكثر من امتداد للفكر اللاهوتي الوسيط، واستئناف لطرائقه في النظر إلى موضوع الإسلام وتراثه)[٢].

وبهذا الصدد، فليس مهما أن نعرفَ متى بدأ مفهوم (مستشرق)أو (استشراق)، لكن المهم هو متى ظهرت هذه الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا؟ ومتى بدأت الحاجة إلى الإسلام والحضارة الإسلامية سواء بالقبول أو بالرفض؟ [٣]، وهكذا فالاستشراق أسلوب غربي لفهم الشرق، والسيطرة عليه، ومحاولة إعادة توجيهه والتحكم فيه.

وإنّ المستشرقين هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية، والحضارة العربية، وبقضايا تخص العالم العربي والدين الإسلامي، وقد وسع البعض من دائرة الاستشراق لتشمل كل من كان له اهتمام بشؤون الشرق سواء من المنتمين الى المراكز البحثية أو من غير المنتمين لها[٤].

وهو ما يعني إمكانية انتماء كل كتابة تتخذ من الشرق موضوعا لها إلى حقل الاستشراق بما في ذلك الكتب الرحليّة المؤلفة عن الحواضر الإسلامية، كالكتب الثلاثة التي كانت موضوعا لدراستنا هذه على سبيل المثال.

ويرجع بعض الباحثين بتاريخ نشأة الاستشراق إلى أواخر القرن السابع الميلادي، وكانوا يستندون إلى ماكتبه، أو ألّفه بعض المسيحيين عن الإسلام، مثل يوحنا الدمشقي، وقد يرى بعضهم أن الاستشراق قد نشأ في القرن الثاني عشر

(١) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د.محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، ص١٨.
(٢) ماقبل الاستشراق، الإسلام في الفكر الديني المسيحي، عبد الإله بلقريز، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٢١،ص٩.
(٣) ينظر: الاستشراق و الخليفة الفكرية للصراع ، ص ٢٠ .
(٤) ينظر: الاستشراق أهدافه ووسائله (دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون) ، د.محمد فتح الله الزيادي، دار قتيبة، ط١، ١٤٢٦هـ - ١٩٨٨م، ص١٦.

الميلادي، وكان أول ظهور لعمل استشراقي يتمثل في أول ترجمة لمعاني القرآن، وقد ظهر حينها أول قاموس لاتيني عربي[١]، وتشير بعض الدراسات المتعلقة بالاستشراق إلى أنه نسق فكري مقترن بدلالات وأهداف ومآرب وغايات لايمكن حصرها في مفهومه الأكاديمي المعروف، لأن وصف الاستشراق بأنه دراسة الآخر الغربي المختلف للانا الشرقية ليس كافيا، فضلاً عن التوصيف الذي يضع الاستشراق تعبيرا عن المقابل المعرفي للتفوق الحضاري للغربي إذا ماقيس في الغرب، ولذا ذهب بعض الدارسين إلى أن مصطلح الاستشراق من أكثر المصطلحات اختزالاً لكثافة تمنع تعريفه وتوصيفه بسهولة[٢].

ولعلّ إدوارد سعيد في كتابه الرائد (الاستشراق) قد وضع يده من خلال استقراء كتابات المستشرقين على ما يمكن فيها من مواقف ثقافية قد تتفاوت من كاتب إلى كاتب، ومن عصر إلى عصر، ولكنها تتميز بموقف أساس يرجع إلى ارتباط المعرفة بالسلطة ، واعتماد كل منهما على صاحبتها، فالسلطة بشتى أشكالها –السياسية والعسكرية والمالية والعلمية – تحدد نوع المعرفة واتجاهاتها، كما ان المعرفة لازمة لقيام السلطة واستمرارها[٣] وعليه، فإن المفهوم الذي وضعه إدوارد سعيد حينما تابع أصوله وتمثيلاته الثقافية للشرق القديم، واستعادة هذا التمثيل الثقافي في مرحلة الاستعمار الذي حمل معه التجار والقساوسة والضباط المتنكرين والمبشرين المسيحين، وعددًا من المستشرقين الأوربيين في أصقاع الدنيا، ومكّنهم من الكتابة والتمثيل وإعادة تركيب الصورة عن الشعوب المغلوبة التي حكموها بالنار والحديد، والقوة المفرطة، وسيكون هذا المفهوم هو الأقرب إلى تصوّرات البحث في تبني

(١)ينظر:الاستشراق أهدافه ووسائله، ص٢٤.
(٢)ينظر: اثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، إدوارد سعيد حنفي-عبدالله العروي، د.نديم قاسم نجدي ، دار الفارابي –بيروت، ط١ ، ٢٠٠٥م ، ص٩-١٠.
(٣)ينظر: الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد ، ت: د. محمد عناني، القاهرة، دار رؤية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٧-٢٨.

المنطلقات والتوجهات بهدف الوقوف على أنماط الصورة الثقافية التي رسمتها رحلات المستشرقين لصورة مكة واقعًا أو تخييلا[١].

(١) ينظر: مابعد الاستشراق (المعرفة و السلطة في زمن الارهاب)، حميد دباشي، ت: باسل عبد الله وطفة، مراجعة: حسام الدين محمد، منشورات المتوسط، ميلانو – ايطاليا، ط١ ،٢٠١٥م، ص١٥-١٦.

الفصل الأول

أنموذج الصورة الحياديّة في كتاب (رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة لآرثر جون وافل.

المبحث الأول : النشأ و التكوين المعرفي.

المبحث الثاني : صورة مكّة في كتاب آرثر جون وافل (رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة).

أ- النشأ.

ولد (آرثر جون وافل) عام ١٨٨٢، من أسرة ضابط عسكري، فتابع سيرة حياتهُ على خطى أبيه ، وجدّه لأمه، وتخرج من الكلية الحربيّة، وسرعان ما انضمّ إلى فصيل ويلز سنة ١٩٠٠م، وأبحر إلى جنوب أفريقيا فشارك في العمل العسكري قبل أن يتمّ التاسعة عشرة من عمره[١]، ولقب صاحب كتاب (رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة) باسم (الحاج علي الزنجباري)، لأنه عاش فترة من حياته في مدينة (مومباسا) بكينيا قريبًا من زنجبار على ساحل أفريقيا الشرقية، نسبة إلى المدينة التي ينتمي لها[٢]، وقد اتخذ (وافل) لنفسه اسم (علي الزنجباري) للتخفي بين المسلمين، وتعلم لغة السواحل أثناء إقامته في زنجبار، وقد أبحر من مرفأ (مارسيليا) الفرنسي في ٢٣ آب، من عام ١٩٠٨م، وكان برفقته شاب زنجباري اسمه (مسعودي)، وشاب آخر من حلب ترعرع في برلين يدعى (عبد الواحد)[٣].

ومن الجدير بالذكر أن الباحثة لم تجد سوى بعض التفاصيل البسيطة عن حياته التي ذكرها في كتابه (رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة)، وبعض المقالات المتحدثة عن حياتهُ بشكل مختصر ووجيز، فآرثر جون وافل هو من عائلة بريطانية الأصل، وهو ذلك الطفل البريطاني المنتمي إلى عائلة تشربت بالعمل العسكري وتوارثته أبًا عن جد، ولأن الولد سر أبيه، فقد كان التحاق آرثر بالكلية الحربية امرًا طبيعيًا، بعد تخرجه من الثانويّة، وبعد ذلك انضم إلى صفوف القوات الحربية

---

(١)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، للرحّالة البريطاني آرثر جون وافل (الحاج الزنجباري)، ترجمة : (ريم بو زين الدّين)، مراجعة وتحرير(د. أحمد إيبش)، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- الإمارات العربية المتحدة ، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص٨.

(٢) ينظر: الحاج آرثر جون وافل الزنجباري ، عبدالله عمر، اسلام اونلاين، https://islamonline.net/.

(٣) ينظر: رحلة الحاج المعاصر مشاهدات آرثر جون وافل، حكيم عنكر، العربي الجديد ٤- فبراير-٢٠١٨.

البريطانية، إذ كانت مغادرتهِ إلى جنوب إفريقيا ليشارك في العمل العسكري للقوات البريطانيّة،عندما كان شابًا في الثامنة عشر من عمره(١).

وقد بدأ (آرثر جون وافل) بمرحلة جديدة من حياتهُ، في هذه المرحلة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، ولما كان القرن السّادس عشر قد شهد من هذهِ المرحلة تضاعف عدد الرّحّالة الأوروبيّين، الذين قصدوا المشّرق إمّا للتجّارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلفات إبداعية فريدة؛ فقد كانت جزيرة العرب معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي، وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رحّالي الغرب وجهودهم المُضـــنية ومغامراتهم الشـــائقة الشـــيء الكثير، عبر خمسـة قرون (من القرن السّـادس عشـر إلى القرن العشـرين) فجابوا بواديها ومجاهلها ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها(٢).

إن الرّحلة التي يصـف أبعادها هذا الكتاب لها قيمة كبيرة، من حيث المغامرة والمتعة في الرّحلة والترحال، ولأنّ الفترة التي كتبت فيها كانت مفصـليّة بين الغرب والمشرق الإسلامي، إذ كانت هناك أحداث دراماتيكيّة وسيناريوهات حربيّة وسياسية وإعادة صـــياغة لجغرافيا المنطقة بعد اندحار العثمانيين، وقد كانت هناك أحداث جسيمة ذكرت وقائعها في الكتاب، وقد أفسحت المجال لظهور شخصيات مهمّة من الرحالة الإنكليز الذين لعبوا أدوارًا محورية في سياسة المنطقة(٣).

وقد كانت هذهِ الطبقة من الرّحّالة العسـكريين والسّـياسـيين والجواسـيس هم الـذين ازدحم بهم الشـــرق العربي في أعقـاب الحرب الأولى بعشـــرينيـات القرن العشـرين، فقد كانت هذهِ الفترة قطف ثمار نصـر بريطانيا، ولتحكم سـيطرة بلادها الثقافية و السّياسيّة والاقتصادية على المشرق العربي(٤).

---

(١)ينظر: الحاج آرثر جون وافل الزنجباري، عبد الله عمر.
(٢)ينظر: ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات، د. إبراهيم بن عبد الله السماري، وسير أعلامها، منشورات مكتبة الملك فهد، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٣٤ وما بعدها.
(٣) ينظر: الحاج آرثر جون وافل الزنجباري، عبد الله عمر.
(٤) ينظر:رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٠.

وقد نقل إلينا المؤلف الذي صـــدّر كتابة بمقدمة عن نشـــوء الإســـلام ودورهُ الحضاري صورة عن طبيعة المجتمع العربي في عصر الرّحلة الذي سنوضحه من خلال الصفحات القادمة، وكان كلامه على قدر من الإنصاف والموضوعية، الأمر الذي دعانا إلى وصف رحلته بالرحلة الحيادية[١].

وقد كان من أبرز الكتابات التي نالت حظوة، واهتمامًا في الدراســـة الغربية كتاب (رحلة الحاج المعاصـــر إلى مكّة عام ١٩٠٨)، وهو من تأليف لضـــابط أو الرحالة البريطاني آرثر جون وافل، أو كما يســـمى (الحاج علي الزنجباري) وهو الاسم الذي يظهر على غلاف الكتاب، وقد وصف شخصيته التي تنكر بها الضباط الإنكليزي كي يتمكن من تحقيق رحلة الحج التي كانت محفوفة بالمخاطر لكون مكّة المكرمة يحرم دخولها على غير المسلم، لذا اتخذ لنفسه شخصية جديدة ومختلفة تمكّنه من التسلل، والقيام بهذه المغامرة، ووصفها نوعًا من التحدي لاكتشاف العالم الآخر(الشرق)[٢].

ولا ننكر أن المؤلف في مشـــاهداته العامة يبدو مأخوذا بالمكان و ثقافته، بل أنه ينظر بعين الإعجاب والتقدير، حيث يرى فيه شيئًا مميزًا، إذ كان لديه فهم لكثير من الجوانب العميقة للإسلام وشعوبه، وقد رأى وافل في هذه السلبيّات أمرًا طبيعيًا، خاصـــة في هذه المنطقة التي تعد مترامية الأطراف، ولطبيعة الحياة القاســـية، فهي تتطلب شـــكلاً مضـــنيا من أشـــكال تحصـــيل المعاش[٣]، وحين يتحدث (وافل) عن والدته، السيدة (بينغ)، فإنه يشير إلى انحدارها من سلالة أدميرال عسكري، وقد دَرسَ(وافل) في (ونشسترساندهرست) سائرا على خطى والده، ثم شارك في العمل العسكري قبل أن يصبح في التاسعة عشرة من عمره[٤].

---

(١) ينظر: المصدر نفسه ، ص١١.
(٢)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة(الاستشراق في حدود الوصف)، للرحالة البريطاني وافل، رامي أبو شهاب، القدسُ العربي، ٢٠١٩-أبريل-١١.
(٣)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة،ص١٢.
(٤)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة ، ص١٦.

وكما نوهنا فإنّه في بداية حياتهُ عُين مسؤولاً عسكريًا يعمل لصالح المستعمرات البريطانية في جنوب أفريقيا، وكان لديه الكثير من التجارب والخبرات العسكرية التي عمل فيها لسنوات، الا أنه ترك الخدمة العسكرية في عام ١٩٠٦م، وبعد ذلك تفرغ للصيد في أدغال أفريقيا(١).

وقد كان آرثر جون وافل رئيسًا للجمعية الجغرافية الملكية، وقد طلب أحدهم مقابلته بغرض اقتراح رحلة استكشافية في مجاهل جزر العرب، فأخذ يناقش اقتراحه للاقتراض من الجمعية لشراء بعض المعدات للقيام بهذه الرحلة بدافع الفضول والاكتشاف.

وعندما يصف (آرثر جونوافل) نفسهُ فهو مربوع القامة وخفيف الوزن بشكل لافت للنظر، إذ يقول أنني كنت في اللقاءات العامة خجولا، وقليل الكلام، ولديّ القليل من الثقة بالنفس، على الرغم من ذلك عندي ذاكرة جيدة، وكانت سرعة بديهتي تظهر من حين إلى آخر بقصد أو دون قصد، وكان لي أصدقاء مقربون وأجواء لطيفة(٢).

ويضيف في حديثه عن نفسه أنه كان حديثهُ ممتعًا وذكيًا وكان يتحمس في أثناء الحديث، مظهرا شدة حماسِهِ في سرد للتفاصيل لمواجهة الأخطار، ومن لا يعرفهُ جيدًا سيخطئ في وصف ما يتحلّى به(٣).

وقد خدم في المستعمرات البريطانية إلى نهاية الحرب في فصيل الخُيالة ، وقد عُيّن في المستعمرات البريطانية بمواطن كثيرة، مابين عام١٩٠٤يوليو، و١٩٠٥أكتوبر، وقد شهد مخاطر عدة وبعزيمة قوية، وبعد ذلك بدأ العمل بالسفر وظل متنقلا طيلة تلك الفترة قرابة ستة أشهر، وحيث ألفت تقاريره الجزء المهم لمعلومات المكتب الحربي السرّية عن هذهِ المناطق (٤).

---

(١)ينظر: "رحلة الحاج المعاصر ": مشاهدات آرثر جون وافل، حكيم عنكر، العربي الجديد ٤-فبراير-٢٠١٨.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٧
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص١٥.
(٤)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة ، ص٨.

وقد وصف لنا علي الزنجباري (وهو الاسم الذي اتخذه آرثر لنفسه) أن هذا الرحالة البريطاني يملك روح الفكاهة وكان محبا للحياة خفيف الظل عاش فترة من عمره في مدينة (مومباسا)، وقام بعدة رحلات منها رحلة في عام ١٩٠٨ إلى مكّة المكّرمة مرتديا ملابس المسلمين ، إذ روى لنا وقائع مسلية حول رحلته، ضمن مغامرة من مغامراته الممتعة والمواقف الطريفة المصاحبة لها، وقد وصف لنا وصفا دقيقا جميع المناطق التي زارها، فقد أخذ موقف الحياد والاحترام والموضوعية فيما روى لنا من أحداث وأمور(١).

(وقبل أن نأتي على صورته الحيادية الموضوعية التي رسمها لمكة المكرمة نؤكد عدم حصولنا على معلومات أو أخبار موثقة تؤكد ارتباط هذا الرحالة الإنجليزي المغرم بالشرق بالمخابرات البريطانية التي كانت نشطة في شبه الجزيرة العربية والمشرق العربي قبل الدخول العسكري البريطاني للمنطقة مطلع القرن التاسع عشر)(٢).

وقد طوّر (وافل) نفسه في الكثير من العلوم، إذ أصبح يتحدث الكثير من اللغات منها اللغة العربية ، اللغة الفرنسية المحكية، واللغة الإيطالية واللغة السواحيلية عند أقامته في زنجبار في عام ١٩٠٨م، وأصبح لديه إلمام بالطب وبمعارف أخرى كثيرة، فهو لا يظهر معرفته الواسعة إلا لمن تعرّف عليه عن كثب في تلك البلدان(٣).

ويشير (وافل) إلى أن هناك لغتين متقاربتين من بعضهما، وهما: (اللغة العربيّة والعبرية)، وهما المثال الحيّ الوحيد لهذهِ المجموعة التي تنتمي إليها الكلدانية والسّريانية وتوجد لغات أخرى ميّتة، وأن العرق العربي يتمتع بجمال

(١)ينظر: المصدر نفسه ، ص٢٠٢.
٢) للوقوف على ذلك ينظر مثلا: اختراق الجزيرة العربية، سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربيّة، ديفيد جورج هوجارت، تر: صبري محمد حسن، مراجعة: جمال زكريا قاسم، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٠١ وما بعدها.
(٣)ينظر: رحلة الحاج المعاصرإلى مكّة، ص١٥-١٦.

فطري، وقوام صغير الحجم نحيل القامة، وقد تتراوح أشكال بشرتهم من السُّمرة إلى البياض .

وأن هذهِ الصفات عند قبائل البدو في نجد والحجاز، وفي المجمعات السكّانية المستقرة في مناطق الجنوب الغربي والمتواجدة في المدن، وهي ليست كذلك عند المصريّين، أو المغاربة أو السّريان أو غيرهم ممّن يطلق عليهم لقب العرب، إذ العربّي الأصيل يمتلك ملامح معقوفة بحدّة، مع سبط الشعر الأسود، والوجوه المرد، وقد صُوّر العربي عمومًا كرجل شديد السُّمرة طويل مهيب المظهر و مُلتحٍ، ولكن (وافل) لا يرى ذلك صحيحًا دائمًا(١).

وكان آرثر جون وافل يعيش حياة عريضةً كثيفةً بحساب التجارب، وإن كانت حياة قصيرة بعدد السنوات، لكنه تعلّم اللغتين العربيّة و الساحلية، ولم يجد في نفسهُ عملاً أكثر إثارة من التسلل إلى مكّة، وهي المدينة المحرمة على من لا يدين بالإسلام(٢).

ثمّ انتهت المغامرة بنجاح، قالها آرثر جون لنفسه فلنضف إليها مغامرة أخرى ولنذهب إلى صنعاء شرع آرثر في تنفيذ فكرته التي انتهت بفشل ذريع، حيث وقع آرثر أسيرًا في يد القوات العثمانية التي كانت تحكم اليمن في تلك الفترة .

وفي عام ١٩١٣م سُجّل اسم (وافل) كملتحق في الاحتياطي الخاص بالفرقة البريطانيّة السابعة، عندما شنت الحرب العالمية الأولى في السنة ١٩١٤م، وقد وجد (وافل) نفسه بعيدًا عن موطنه، أي في إفريقيا مقاتلا بالحرب ضد الألمان، وكانت لهُ ردّة فعل قويّة، إذ أراد أن يعود إلى انكلترا ليشارك في الحرب، ولم تكن السلطات المحلية تقبل لهُ ، بسبب الدفاع عن موباسا لأهميتها في الحرب(٣).

وفي عام١٩١٤م وقع الهجوم الألماني على الفصيل العسكري الذي يخدم فيه (وافل)، وكان الألمان يمتلكون أسلحة حديثة الصنع، وحُرمت منها فرقته، إذ ظلت الحرب قائمة لعدّة ساعات تخوضها قوة تفوقه عددًا وعتادًا في المواجهة، و حارب

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص ٢٨.
(٢) ينظر: الحاج آرثر جون وافل الزنجباري، عبد الله عمر، موقع إسلام أون لاين.
(٣)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٨.

رجاله وكأنهم كانوا جنودًا طوال حياتهم، ولكنه فشل في السيطرة على الموقع الذي تراجعت إليه فرقة (وافل)، وبعد ذلك أصيب (وافل) في كتفه وتحطم القسم الأعلى من ذراعه بشكل سيء، ليصدّ هجومًا بمزيج من الشجاعة، والمهارة، والخداع، حيث يُعدّ هذا الهجوم مدمرا مقارنة بعدد أفراده، وكان قادرا على أن ينهي المعركة بسيطرته على البلدة بعد تحطيم جسر السكة الحديدية الطويل والمهم، وقد أثبت (وافل) في هذه المعركة قدرته على تحمل المسؤولية رغم الصعاب الكبيرة ورغم إصابته البالغة(١).

وكان الجيش صغيرا، لكن أفعالهُ مشرفة بعد مقاومة باسلة للزحف الألماني قُتل بسببها آرثر على يد الألمان الذين دفنوه، وكتبوا على قبره (هنا يرقد ضابط شجاع قدّم عملاً رائعًا منذ بداية الحرب)، و كان يبلغ من العمر عند وفاته أربعًا وثلاثين سنة(٢)، وكان بذلك آخر رحالة أوروبي يزور مكّة المكرّمة قبيل زوال الحكم العثماني بعد الحرب الكونية الكبرى، إذ لقي حتفه في العام ١٩١٦م، خلال القتال مع القوات الألمانية (٣)، ليطوي بذلك صفحة من حياة امتلأت بالجرأة، والإقدام وركوب الصعاب تاركا مجموعة من الدراسات والمذكرات، ومنها كتابه قيد الدراسة والتحليل.

ب- التكوين المعرفي:

بما أننا لا نملك المعلومات الوافية عن حياة (وافل) إلا من خلال كتابه (رحلة الحاج) فسنحاول التركيز على هذا الكتاب لبيان طبيعة ثقافة الرجل ومستوى تفكيره الذي نحاول أن نلقي الضوء عليه من خلال الآتي:

يصف أحد الدارسين كتاب (وافل) بأنه كتاب يحمل الكثير من المتعة انطلاقاً من منظار خاص يقدمه الرحالة البريطاني، الذي خاض رحلة محفوفة بالمخاطر، كما يقدم الكتاب صورة مسلية لواقع تلك المنطقة (الجزيرة العربية) في مرحلة تاريخية

(١) رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٩.
(٢)ينظر: المصدر نفسه، ص٢٠.
(٣) المصدرنفسه، ص ٢٠٢.

معينة (بدايات القرن العشرين)، التي لم تتمكن بعض كتب الرحلة العربية المختصة من تقديم مشهد يماثل كتاب (وافل) دقة ووصفا علميا للمكان بطبيعته الأنثربولوجية والثقافية[١].

ولذا نجد (وافل) يتكلم في كتابه (رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة) بشكل مفصل عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياته وحروبه في المعارك وعن وفاته، وبعد وفاته، وكان حديثه عن الرسول الأكرم بشكل مبسط وقصير معرّفا بقبيلته قريش، وبطفولته التي أمضاها في البوادي العربية، وعندما أصبح في الخامسة والعشرين من عمره، وجد النبي محمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه غير مضطرّ للعمل لإعالة نفسه، فتوجّه إلى العمل في التغيير السياسي والتعمّق بأمور ذات اهتمامات روحانية، وقد كانت السيدة خديجة التي تزوجها عن رضا وتفاهم متفانية لهُ، وقد عاش معها سنوات من السعادة والرضى، كأيّ رجل آخر دمث الأخلاق ودون طموحات، ورُزق الزوجان ابنًا أسمياه القاسم توفّي في المهد و أربع بنات أخصّهنّ فاطمة[٢]، فقد نفهم من خلال كلام الرسول محمد(ص) مهما كنت ذو منصب في الأرض، فأن العمل فيه عباده.

وعندما كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في سن الأربعين من عمرهُ – كما يذهب آرثر جون-فأن ملاكا بدأ يظهر له ويُملي عليه، من كتاب أعلمه بأن عليه أن ينشـــره على العالم أجمع، وكانت تنزل عليه آيات الوحي الأوليات نثرًا مقفى خاصّـــاً باللغة العربية، وقد بدأ يتحدث بما حدث معه إلى زوجته الســـيّدة(خديجة)، وطلب منها نصـــيحتها، إذ وقفت إلى جانبه، ودعمته بكل ما أمكنها كزوجة صـــالحة وذكية تحرص على ســـلامة زوجها في الحل والترحال، وتدعمه في كل مســـاعيه، وكان السيد (آرثر) ينقل لنا الأحداث التي حدثت مع الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) بصورة مفصلة من بداية الدعوة ونزول الوحي عليه، ومعارضة قريش،

(١) رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، الاستشراق في حدود الوصف، رامي أبو شهاب، جريدة القدس العربي، https://www.alquds.co.uk/.
(٢) رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٣٠.

ونلحظ أن وافل كان جيد الاطلاع والمعرفة بشخصية النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبتاريخ الإسلام كما بدا ذلك من خلال كتابه الذي يتناول جوانب من هذا التاريخ بحياد وموضوعية(١).

فقد يبين وافل، أنه لما انتشر الدين الجديد فقد هدّدت أعداد الداخلين إليه نفوذ مكّة، وكانت مواسم الحجّ التي اعتاد العرب على ممارستها قبل الإسلام من أفضل التجمعات التي استغلها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لنشر دعوته الجديدة القائمة على المساواة والعدل بين الناس(٢).

ويتحدث آرثر جون عن عداء قريش لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وتدبيرهم للخلاص منهم، ولما علم بأمر هذهِ التدابير تحوّل إلى المدينة بحثا عن مكان أكثر أمنا، أما أهل المدينة التي تبعد ثلاثمائة ميل شمال مكّة على طريق الشام، فقد أظهروا استعدادهم لتقبل تعاليمه الجديدة، وقد وجد محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة المنورة منفى عسيرًا، إلا أنه واجه الكثير من الصعوبات في تلك الفترة، وبعد ذلك قام بنشر دعوته فقد بدأت الأعداد بتزايد مستمر، فأصبح الوضع يهدد أسياد قريش الذين أغروا يهود المدينة بعداء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ سعت قريش إلى إخراجه من المدينة، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، ممّا دفع قريش لإعلان الحرب، إذ حدثت بينهم معركة خسرتها قريش، وقد سميت بمعركة بدر، لكنهم كسبوا في السنة التالية معركة أُحُد(٣).

وقد وقعت معارك أخرى مع الرسول الكريم قام بنفسه بقيادة جيش المسلمين لمواجهة القبائل العاصية، وبعد ذلك قام بإرسال رسائل لحكام الدول المجاورة يطالبهم بالخضوع لهُ والدخول في الإسلام، وفي السنة الحادية عشرة للهجرة، بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كان معظم جزيرة العرب قد دان بالإسلام.

---

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص ٣٣ وما بعدها.
(٢)ينظر: المصدر نفسه، ص٣١-٣٢.
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٣٣.

ولم يهمل المؤلف صفات النبي الأكرم الجسدية، فذكر أنه كان رجلاً فاتح البشرة، مربوع القامة، متين البنية ذا شعر و لحية سوداوين، لطيف الملامح، وذا عينين برّاقتين بنحو لافت، وذكر عن أخلاقه أنه كان يشمئز من النفاق كثيرا، ولم يكن يميل للتوبيخ وللبذخ، فقد كان يعيش حياة بسيطة كأي إنسان عادي في المدينة، فضلا عن كونه شخصًا منفتحًا حاضرا مع الكل للمناقشة، أو شرح أيّ أمر لكلّ من يأتي إليه، وكان دمث الأخلاق ومحبًا للحياة رفيقًا بالأطفال، ولم يدّعِ القدرة على اجتراح المعجزات، فأنّ القرآن -بحدّ ذاته- كان معجزة كافية لإقناع أشد الناس عنادًا، لكنّ (آرثر) يصرح بأن الرسول الأكرم محمدًا(صلى الله عليه وآله وسلم) حصل على عون إلهي في غار حراء وبعد هذه الحادثة[١].

وبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ارتدت بعض من القبائل التي دخلت في الإسلام إبّان حياته، ودبّ خلاف بين رجالاته حول من سيخلفه، وقد كان الداعم الأول لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عليّ صهر الرسول، وأول المؤمنين به لدخولهُ الإسلام، وعلى ذلك فقد أبلى بلاء حسنًا في أرض المعركة، وفي إبداء الرأي بالشورى، ولكنّه كان أفضل المرشحين للخلافة، و إنما وقع بعض الاعتراضات على ترشّيح عليّ، لكنّه وقع الاختيار على أبي بكر مرافق الرسول في غار حراء، وعلى هذا الأثر تم ترشيحهُ، ولحساسية الموقف لم يكن هناك اختيار أكثر حكمة، وإنما كان الموقف يتطلب حنكة وحزمًا للتعامل معهُ، وبعد تأزم معروف لقب أبو بكر(خليفة الرسول)، وعلى الرغم من ذلك نجح في فصل الخلافات المحلية، وفي قمع الثورات بين القبائل، وقد توفّي أبو بكر بعيد السيطرة على دمشق، مسلّمًا تقاليد الحكم إلى عُمر، الذي كان مثله أحد أوائل الصحابة وأهمّهم تأثيرا في تاريخ الإسلام، وقد قوبل هذا الاختيار بقبول حسن عمومًا، وبعد تسلمه المنصب، فقد صرّح عمر أنه يجب أن يلقّب بخليفة رسول الله، قائلا:(أنتم المؤمنون، و أنا أميرٌ عليكم، لذا فلقبوني بأمير المؤمنين)، وهو لقب مازال يتكنّى به سلاطين أتراك[٢]، وقد أكمل المسيرة عُمر

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٣٥.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٥-٣٦.

بسياسة الفتوحات الخارجية لأبي بكر، ولم تكن الإمبراطورية الرّومانية قد أفاقت من صدمة الهزيمة في مقاطعة الشام على زمن النبي حتى داهم حدودها المسلمون من جديد أيام خلافة عمر بن الخطاب.

ويتطرق (آرثر) للأحداث التي تلت مقتل الخليفة الثالث (عُثمان بن عفان)، وتقلّد عليّ للخلافة بعد أن صار مسنًا في ذلك الوقت، لكن أحقيته في الخلافة طُعن بها من قبل معاوية، واتُّهم باطلاً بضلوعه في مقتل عثمان، وبعد ذلك اندلعت الحرب الأهلية، وانقسمت الإمبراطورية إلى حين وقت مقتل عليّ في الكوفة سنة٤٠ للهجرة مفسحًا المجال لمنافسه معاوية لتقلّد الحكم(١).

فيما تحدث عن تخلّى الحسن بن علي(عليهما السلام) عن حقّه في الخلافة لمصلحة معاوية، الذي كان أول من أسّس السّلالات الحاكمة في الإسلام، إذ حكمت ذريته المعروفة ببني أمية في الشرق إلى أن سقط حكمهم على أيدي بني العباس، ذرية عم محمّد، سنة ١٣٢للهجرة، فيزيد والده معاوية، وقد اتهم بالتحريض على قتل الحسن والحسين حفيدي الرسول الأكرم، أما حفيده الأول؛ فقد دُسّ له السمّ، وأما الثاني فقضى نحبه في المعركة مع معظم أهله قرب الكوفة في أرض الرافدين، ويُعدّ مقتلهما حدا فاصلا بين مرحلتين من تاريخ الإسلام(٢).

وفيما يتعلق بـ (القرآن) فقد أورد آرثر مجموعة من الأفكار الدالة على إنصافه وموضوعيته وسعة إطلاعه على أحوال الإسلام والمسلمين، إذ يذكر انه كانت هناك محاولات لوضع آيات (كتاب محمد) في مجلّد واحد عند وفاة النبي، على اعتبار أنه لم يأمر بكتابة آيات الوحي، إنما تنّبه أبو بكر إلى الخطر، بعد أن لاحظ أن الصحابة الحافظين للقرآن عن ظهر القلب يموتون الواحد تلو الآخر، فعيّن (هيأة عليا) لجمع الآيات و تدوينها، وتم تدوين القرآن الكريم الذي أُنجِز جَمعُه في عهد عثمان، ولم يكن هناك أي محاولة لجمع الآيات بحسب ترتيبها الزمني أو بحسب معناها، وقد ذكر (آرثر) أنّ القرآن ينصّ على أنه لا إله إلا الله، فهو إله واحد أزلي مطلق، لا يدركه

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٣٧.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٣٨.

عقل، وهو إله (آدم، وموسى، وعيسى المسيح، وجميع الأنبياء من قبلهم)، وقد أوحى بمشيئته عدة مرات من قبل بكتب، وأهمها الثلاثة المعروفة التوراة (العهد القديم) والإنجيل، وأنّ هذين الكتابين قد تحرّفا، وقد نزل القرآن على النبي محمّد (ص) ليحلّ محلّهما(١).

إن القرآن بحسب (جون آرثر وافل) يجمع جميع العقائد والعقيدة الأساسية التي تشكّل الأديان في هذهِ الكتب التي لاتزال واحدة لم تتغيّر، فنظرية خلود الروح، ويوم الحساب، الجنة، النار، الشيطان عدو الإنسان، الملائكة، الشياطين وغيرها، مما ذكر سابقًا في التوراة والإنجيل صادق عليها القرآن كقاعدة عامة، أما الشريعة المحدّدة، فهي نفسها في الوصايا العشر، فالحضّ على (التقوى، والعفة والقناعة والبرّ والإحسان) يتكرّر ذكره باستمرار، وهناك ذكر لقصص يرد مغزاها في التّوراة لتثبيت هذه الفضائل(١)، وإن قسمًا كبيرًا من الكتاب يشدّد على وحدانية الألوهية المطلقة، فقيل لنا إن الله يغفر ما يشاء من الذنوب إلا أن يُشرك به، ويرد في سورة الإخلاص: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾(٢).

(وفي الواقع أن ثلث القرآن مكرّس للمبدأ ذاته بعدّة أوجه، وتعابير مختلفة، إن موضوع العلاقة الشائك بين الإسلام والمسيحية بالنسبة إلى العقيدة، وأن محمّدا نفسه توقع أن يهدي اليهود والمسيحيون إلى الإسلام، لكن لم يتم ذلك، ويشير القرآن الكريم إلى عيسى بن مريم في أكثر من مقام، و يسمّى بالمسيح وبروح الله، ويعتقد القرآن بالعذراء التي ولدت من غير دنس، وقد يلام اليهود على شركهم ورفضهم تقبّل تعاليم المسيح، كما يلام المسيحيون على انحرافهم عنها، و البعض يعتقد أن عيسى ابن الله شركًا مطلقًا، ويشار إلى اليهود والمسيحيين في القرآن بلفظ (أهل الكتاب) ويعاملون على أساس مختلف عن الكفار أو الوثنيين)(٣).

---

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٣٩-٤٠.
(٢)سورة الإخلاص، آية (١-٤).
(٣) رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٣٩-٤٠.

أما النص القرآني المتعلق بالصلب فهو كما يلي : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾[١]، وعليه فإنّ(التبريرات الإيمانية هي مدخل آخر للخلاف، فيتعمّق القرآن، أكثر من الكتب التي سبقته، في التبشير بالمغفرة للمؤمنين بالعقيدة الأساسية، مهما اقترفوا في حياتهم، ممّا جعل الإيمان بالجنّة و النار نتيجة مسلّماً بها)[٢].

امّاالإيمان بالقضاء والقدر المذكور في القرآن فقد أختلف الرأي عليه بشدة، ولم يتفق عليه المسلمون أنفسهم، وإن عقيدة الإسلام تتوافق مع عدة مبادئ اختلفت عليها الكنائس المسيحية، فمبدأ أن مصير الروح مقضي به هو أصل العقيدة (الكالفينية)[٣]، ونظرة المسلمين إلى الخلافة تتطابق مع وجهة نظر الروم الكاثوليك بالنسبة إلى الإرث الرسولي، لكن كنيسة إنكلترا مثلاتشدّد على سيادة الكتاب المقدس، أما الجزء من القرآن الذي يتداول التشريع العملّي، أن ندون ملاحظة أن تشريعاته الجزائيّة فهي شديدة قياسًا للأعراف المعاصرة[٤].

وقد يضاف إلى القرآن وبأهمية كبرى في نظر المسلمين الكتب الستة للسنّة والحديث الشريف، فالسنّة والحديث الشريف يمثلان ما نُقل عن الرسول من قول أو

---

(١)سورة النساء، آية (١٥٧-١٥٨).
(٢)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٤١.
(٣)الكالفينية: هي فرع من المسيحية البروتستانتية نشأت مع تعاليم اللاهوتي في القرن السادس عشر جون كالفن، يُعرف أيضًا باسم اللاهوت المصلح أو البروتستانتية الإصلاحية، وتؤكد الكالفينية على سيادة الله، والفساد التام للطبيعة البشرية، ومفهوم الأقدار، إنه يعلم أن الله يختار من سيخلص، وأن الأفراد لا يمكنهم كسب الخلاص من خلال جهودهم الخاصة، ينظر معجم الأديان، ويكيبيديا، https://ar.m.wikipedia.org/wiki/%D٨١٪٩D٪٨٤٪٩D٪٧A٪٨D٪٨٣٪٩ .٩A٪٨A%D٨٪٩D٪٨٦٪٩A%D٨٪٩D%
(٤)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٤١.

عمل، فقد قال: إنّ الإسلام سينقسم لاحقًا إلى (اثنتين وسبعين) فرقة، كلّها في النار، ماعدا واحدة، لكنه لم يقل أيّها.

إنّ الجزء الأول من هذه النبوءة قد قارب التحقّق، والإسلام اليوم ينقسم على قسمين رئيسين، وكلٌ يُعدّ الفريق الآخر صاحب بدع، وهذان الفريقان ينقسمان كلٌ على حدة إلى مذاهب تختلف في الشعائر فقط، وهناك عدد بسيط من المذاهب الأخرى الأقل أهمية قد لا تُعدّ من الإسلام في شيء.

إنّ الشقاق بين الفرقتين الأساسيتين المعروفتين بالسنّة والشيعة، بدأ حين دبّ الاختلاف السياسي في عهد الخلفاء الراشدين، إذ يرى السنة أن الخلافة ترجع طبيعيًا، إلى أي من الوجهاء المسلمين الأقوياء في حينه، بغض النظر عن كونهم من آل البيت أو عدم انتمائهم لآل البيت، ويؤكد الشيعة أن الخلافة محصورة في آل البيت من خلال عليّ وفاطمة، وهم مؤمنون أن الخلفاء الثلاثة الأوائل قد حرموا عليًا من حقه في الخلافة[١].

وأشار القرآن إلى أهمية المرأة في البلاد الإسلامية، وكذلك تحدث عن تعدد الزوجات، وأنّه ليس إلزامًا، وقد وضعها تحت شروط معينة، وقد ذكر آرثر أن (أفضل شهر عند الله من أشهر طويلة من الصلاة والصوم هو شهرُ رمضان وقد ذكر القرآن هذا الشهر بذكر وأضح و صريح)[٢].

ولا يتردد الكاتب عن التطرق إلى الحركات السياسية والصحوات التي نادت في عصره بالعودة إلى جوهر الإسلام القائم على التوحيد، إذ رأى في صحوة نجد بزعامة(محمد بن عبد الوهاب) في منتصف القرن الثامن عشر من أهم الحركات المنادية بالعودة إلى صفاء الإسلام في زاهر عهده، إذ أثارت حفيظة عبد الوهاب الممارسات الوثنية والخرافات التي لاحظها في رحلة الحجّ له، وقد مارس عبد الوهاب قوته وسطوته في فرض آرائه بحد السيف ، وقد سيطر الوهابيون –آنذاك- على مكّة والمدينة، ودمّروا مدن العراق والخليج كالنجف وكربلاء، وغيرها[٣] .

---

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٤٢-٤٣.
(٢)المصدر نفسه، ص٤٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٧-٤٨.

وهكذا نجد أن (وافل) يسرد تاريخ تشكل الإسلام والرسالة المحمدية، وبعض أركانه المهمة، كالصلاة والصوم والحج والزكاة، وهو في ذلك يسعى إلى رسم أنموذج معرفي للدين الإسلامي انطلاقاً من خبرته وقراءته، وفي كثير من تلك المعارف نقرأ سعيا واضحا لتقديم معرفة موضوعية لا تستند إلى تحيّزات أو منظورات ضيقة أو عنصرية، مع أن ثمة بعض من المغالطات التي تشير اليها المترجمة، وتقوم بالإشارة إلى الصواب منها(١).

إذ تحدث عن الرسول محمد (ص) بشكل مفصل على عكس الرحالة الآخرين الذين سنأتي على ذكرهم كـ(ليوبولد فايس)الذي لم يتحدث عن ذلك إلا ما ندر، وأيضًا تحدث آرثر عن القرآن الذي أسماه (كتاب محمد) متناولا الكثير من الجوانب التي تطرق لها القرآن من(صلاة، وصيام، وزكاة، وحج) وتطرق إلى الزواج، وتعدد الزوجات، وقد ذكرها في مواضع معينة، وتطرّق إلى المذاهب التي فرقت بين المسلمين، وتحدث عن وحدانية الله، والإيمان به، وكان حديثه هذا بمثابة المقدمة لكتابه الذي ذكر فيه رحلته إلى مكة التي كان يروم من خلالها أن يصور لنا صورة مكة كما شاهدها، وكما امتزج في تصويره لها جانب الحقيقة بجانب الخيال، وكما سنأتي على ذلك في الصفحات القادمة.

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر الى مكة ، ص ٣٤،٢٧.

المبحث الثاني: صورة مكّة في كتاب:(رحـــلة الحاج المعاصر إلى مكّــة) لآرثر جون وافل.

١ - وصف الكتاب:

وقد صدرت لهذا الكتاب طبعات عدة، فقد صدرت الطبعة الأولى في لندن في حياة المؤلف عام١٩١٣، بعد قيامه بهذه الرحلة برحلته بخمسة أعوام، وهذه الطبعة تضمّنت قسمين: رحلة الحجّ إلى مكّة عام ١٩٠٨، وحكاية حصار الأتراك لصنعاء في عام ١٩١٠، وفي هذه الطبعة بضعة صور فوتوغرافيّة يروي وافل أنه طلب تصويرها من موظف تركي، وصدر الكتاب عن دار (كونستابل) للنشر في ٣٤٥صفحة بعنوان :

(A pilgrim in Mecca and a Siege in Sanaa
Constable,London.)

وقد صدرت طبعة ثانية أخرى للكتاب في عام ١٩١٨، بعد سنتين من وفاة وافل، مصدّرة بمقدمة (لينارد و دارون) الذي تعرف بوافل عقب قيامه برحلة حجه، فأعجب به ودعمه.

وهذه الطبعة تقتصر على القسم الأول الذي يضّم أخبار رحلة الحجّ التي تّمت في خريف عام ١٩٠٨، وأن المؤلف قد صدّر كتابه بمقدمة عن نشوء الإسلام، وعن دوره الحضاري قديمًا وفي عصر الرّحلة، ولابدّ أن نقول أن كلامه كان ضمن حدود ملائمة جدًا من التجرّد والإنصاف والموضوعية والاحترام[١].

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١١.

وقد ترجمت هذا الكتاب السـيدة(ريم بوزين الدين)، وقد حرّره وعلّق عليه (د. أحمد إيبش) وكانت حقوق الطبع محفوظة لـ(دار الكتب الوطنية)، وهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي) ، وقد صدرت الطبعة الأولى في عام(١٤٣٢هـ _ ٢٠١١م)، ويحتوي هذا الكتاب على ما مجموعه (٢٠٢) صفحة .

وينتمي الكتاب إلى أدب الرحلات التي لم تتوقف بين الغربيين وأهل الشرق، وقد جاء في المقدمة التي وضعتها الهيئة المشرفة على سلسلة التراث والثقافة التي صدرت عنها ترجمة الكتاب ما نصه:(لقد طفقت جموع الرحالين تتناوب على زيارة الشرق منذ عصر الإغريق كرحلة آناباسيس لزينون الأثيني ورحلة هيرودوتوس، والرومان كرحلة إيليوس غالوس ثم في القرون الوسطى حل الطمع محل الفضول واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبية ... فلما أطل القرن السادس عشر بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضارية من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرحّالة الأوربيين الذين قصدوا المشرق إما للتجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرد الخروج بمؤلفات إبداعية فريدة)[١].

وللكتاب أجزاء عدة، وهذا هو الجزء الأول منه،ويحتوي على تسعة فصول، ولم نعثرعلى غير الجزء الأول من الكتاب.

أما فصول الكتاب التسع فاحتوت على العنوانات الآتية: من لندن إلى بيروت، الفصل الثاني: دمشق، الفصل الثالث: الخطّ الحديدي الحجازي، الفصل الرابع: المدينة المنوّرة، الفصل الخامس: من المدينة المنوّرة إلى ينُبع، الفصل السادس: جدّة، الفصل السابع: من جدّة إلى مكّة المكّرمة، الفصل الثامن: مكّة المكرّمة، الفصل التاسع: رحلة الحجّ، ويبدو من خلال استعراض الفصول إن الرحلة امتدت لزمن طويل قد خطط له الرحالة الذي جعل غاية رحلته هذه (مكة المكرمة) والكشف عن طقوسها العجيبة في

(١)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٦.

أداء مناسك الحج، وهو ما جعله (أرثر جون وافل) ختام هذه الرحلة وغايتها التي حلّت كمسك الختام من مجموع زمن الرحلة.

٢- دوافع الرحلة:

إن لكل رحالة دافعًا يحركهُ للسير في رحلته، لأن الرحالة يسافر ويتنقل في كثير من الأماكن رغبة في التعلم والاستكشاف، ولمعرفة طبيعة البلاد وما تخفيه من معالم أثرية، ومن ملامح جغرافية وطوبوغرافية مختلفة، فالرحالة يرتحل ليتعلم من البلاد التي ذهب إليها، ويرجع إلى بلده ليعيد إنتاج حصيله المعرفي، وتجربته في الاستكشاف حول ما توصل إليه من خلال الرحلة التي نقلته إلى عوالم جديدة وغير مألوفة، فعندما يذهب المرتحل إلى مكان ينقل الصورة التي رآها من خلال نظرته لهذا البلد، و قد يعطي الشخص العادي رأيه في البلد التي زارها فقد تكون نظرته سطحية، إنما الرحالة يبحث في أدق التفاصيل التي شاهدها خلال رحلتهِ، وإن الطابع الذي يظهرهُ الرحالة سيتضح للدارس من خلال طبيعة نوايا كتاباتهِ إذا ما كانت استكشافية أو جاسوسية أو معرفية بحتة، أو سوى ذلك .

وقد دوّن الرحالة كُل ما شاهدوه من اختلاف في شتى الممارسات في البلدان، ومنها بالممارسات السياسية التي بين طرق الحكم وأساليب إدارة البلدان، وكيفية تنظيم علاقات الأفراد في تلك البلدان، وأساليب العقوبات المختلفة، فابن بطوطة(على سبيل المثال) يقول عن جزائر ذيبة المهل:(ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة) مما يعطي انطباعا بان ابن بطوطة كان مدفوعا برغبة الكشف، وبتسجيل كل ما هو جديد ومختلف عما ألفه في حياته اليومية المعروفة[١].

وكذلك يصف الرحالة أبو دلف حياة الشعوب التركية والقبائل والتنقل فيها مبينا افتقادها إلى طرق تنظيم حياتها وأساليبها، وقد كان هناك دافع يحرك أبا دلف لوصف التباين والاختلاف والمقارنة بين هذه الأساليب التي رآها همجية أو متخلفة وبين ما

(١) ينظر: كتاب الاختلاف في أدب الرحلة، ص٥١.

في ثقافته من تطور في أساليب الحكم وإدارة البلاد، ويذكر قبيلة (البنجاك) الأتراك بأنهم(همج يغيرُ بعضهم على بعض) [١].

فهناك دافع يحرك الرحالة للتحدث في شؤون الحكم من ناحية إعجابه بالحكم والممارسة السياسية، وحسن تصرف بعض الحكام، وقد نرى تعجب ابن جبير من ملك صقلية إذ يقول :(وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة و استعمال المسلمين)، فعلى الرغم من تشدد ابن جبير و كراهيته للإفرنج، فإن سيرة هذا الملك وحسن تصرفه وتسامحه مع المسلمين جعلته يشيد به،أما الإعجاب فيبرز جليّا في قول ابن بطوطة: وفي بلاد (المليبار) اثنا عشر سلطانا من الكفار، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف، ولا فتنة بينهم البتة، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف [٢].

وهنا يطرح السؤال نفسه عن طبيعة الدوافع التي حركت الرحالة (آرثر جون وافل) إلى مكّة، فإذا كانت المؤسسة الناشرة للكتاب قد حددت دوافع (وافل) بمحاولة نقل صورة صادقة عن المسلمين وعاداتهم للأوربيين[٣]؛ فإنّ زميله (دارون) يحدد دوافع وافل بطبيعته الشخصية الميّالة إلى حب المغامرة، والمدفوعة إلى حب تغيير الأمكنة، واكتشاف عوالمها الخفيّة[٤]، أما (وافل) نفسه فقد حدّد دوافعه من خلال المقدمة الطويلة التي وضعها لكتابه بأنها دوافع يغذيها طموح محدد، وهو إزاحة غشاوة الجهل التي تسود مجنمع المثقفين الإنجليز في عصره حول المسلمين وبلدهم، إذ يقول في مقدمة كتابه:(إن جهلنا بجزيرة العرب قد يعزى إلى ندرة الأدب المكتوب في هذا الموضوع، وخصوصا في الأدب الإنكليزي، ولا تعدّ هذه الندرة مستغربة،

(١)للتوسع بذلك ينظر: كتابة الاختلاف في أدب الرحالة، ص٥٢.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ، ص٥٤.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٧.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص١٧.

فعندما ننظر في شخصية جزيرة العرب وسكانها؛ فإن مساحة الجزيرة تقارب مليونا ونيفا من الأميال المربعة... أي أنها أكبر مساحة من الهند)[١].

ونستطيع القول: إن جميع الدوافع المذكورة حاضرة في رحلة وافل إلى مكة من أجل رسم صورة للآخر المختلف، وبحسب ما يستدعيه نظام كتابة الرحلة من وصفها خطابا مخصوصا يتولى فيه الرحالة دور القاص الذي يحكي للآخرين ممن يجهلون المحكي عنه كلّ ما هو غريب وغير مألوف ومختل

٣-صورة مكّة في كتاب (آرثر جون وافل):

أ- لحظة القوة والثقة بالنفس:

إن (آرثر جون وافل) كان أحد الرّحّالين والمستشرقين الإنكليز الجريئين الذين قاموا برحلة الحجّ متنكّرا بثياب المسلمين، ومتقمّصا شخصياتهم، على ما في ذلك من خطورة على حياته الشخصية، لا سيما في مجاهل الصحراء عندما ينفرد مع البدو، ولذا نجده يذكر في كتابه قوله:(إنّ من الضروري أن أتعلم شعائر المسلم عند دخولهم المساجد وعند الخروج من المسجد دون أخطاء وأن أرتدي الملابس بالطريقة التقليدية حتى لا يكشف سري، وأن هذهِ التقاليد التي تكون عقبة أمام الأوروبي المتخفّي كمسلم أصلي، وأن أيّ خطأ يلفت الانتباه إليه)[٢].

ولعل من أشهر رحالة عصره الآخرين: جوزف بتس، ريتشارد برُتون (الحاج عبدالله)، جون فراير كين (الحاج محمّد أمين)، وأخيرًا صاحبنا وافل (الحاج علي الزّنجباري)، أنه كان آخر إنكليزي يشهد مشاعر الحجّ بأمّ عينيه أواخر أيام الحكم العثماني، الذي وصل إلى نهايته في عام ١٩١٨[٣].

(١) رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٢٣.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٦٢-٦٣.
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٧.

وتُعدّ الرّحلة إلى مكّة والمدينة تجربة غير اعتيادية لصعوبة المواصلات قبل أكثر من قرن، ولاعتماد الحجيج على الإبل والجمال في تنقلاتهم، خصوصًا، أنه قد مرّت سنون كثيرة كما يذهب (آرثر)منذ أن تحدّث رجل إنكليزي عن تطفله على تلك المناطق، ومما يعقد هذه المهمة عدم رغبة زيارة أيّ مسيحي مجاهر بمسيحيته لمكّة أو للمدينة منذ عصر النبي، وإن الأوروبيين الذين دخلوا مكة خلال مئات السنين الماضية لا يتعدّون الاثني عشر، وأربعة منهم بمن فيهم (آرثر جون وافل) كانوا من الإنكليز، أما زائرو المدينة المنورة، فإن عددهم أقل من ذلك، إن المسافرين إلى تلك الأماكن قد قاموا برحلاتهم تحت غطاء إحدى طريقتين: الأولى إشهار إسلامهم علنًا، والثانية بالتنكّر[١]، ويتحدث (وافل) عن صعوبة الرحلة ذاكرا أنواع الصحاري التي قطعها مجازفا بحياته[٢]، ومتحدثا عن مجموعة من العواقب والصعاب التي تحتاج إلى مزيد من الصبر للثبات والانتصار من أجل تحقيق هذه الرحلة[٣]، وبالنظر لموضوعية الرجل التي أشرنا لها يذكر (وافل) أن الحجاج الأوروبيين الذين سبقوه يقومون بحجّهم إلى الأراضي المقدسة مطمئنين من عدم تعرضهم لمشاعر العداوة كما دونوا في كتبهم التي اطلع عليها، من دون أن يلحقهم أذى أو يصيبهم مكروه، فقد كانوا يشترون سعة الصدر والتسامح الصادق في الأمور الدينية وفي الحريات الشخصية[٤]، ولم يحدث أن تعرض أحد في المدن الإسلامية إلى الغربيين الذين كانوا يرتادون الأراضي المقدسة بسوء، لأن الدين الإسلامي منطو على روح التسامح والمحبة مع أهل الذمة و الحجاج الغرباء، أولئك الحجاج ربما قد لقوا بعض المضايقات على أيدي السلاجقة كما يذهب أحد الباحثين[٥].

وما نريد أن نخلص إليه من الكلام المار هو: ما سبب هذه القوة النفسية والشجاعة التي تحلى بها (وافل) عندما دخل بلاد المسلمين زائرا متخفيا؟ أهو بسبب كونه رجلا

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ، ص ٢٣- ٢٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٥.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٥١ وما بعدها .
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٢٤.
(٥) ينظر: صورة القدس الشريف في رحلات و مرآة الغربيين، ص٥١.

عسكريا خاض غمار الحروب الكثيرة كما بينا ذلك من سرد موجز لسيرة حياته، أم هو بسبب شعوره بقوة انتمائه إلى أكبر قوة عسكرية في العالم (آنذاك)أي بريطانيا العظمى، أم هو بسبب اطلاعه الواسع على روحانية الإسلام، وأخلاقيات أهله، لا كما تصورها كتب الاستشراق المزيفة، وإنما كما توصل وافل بحدوسه الخاصة وبتجاربه العديدة السابقة مع السكان الشرقيين المجاورة بلادهم لبلدان المسلمين والمتطبعين بطباعهم.

ب- مقدمات الرحلة:

قام مؤلف الكتاب برحلة الحج سنة ١٩٠٨-١٩٠٩ ومعه رفيقان، حبًّا بالاستطلاع من جهة، وليألف عادات العرب، ويصورها للقارئ الغربي من جهة ثانية ، ولا يمكن الكتابة عن هذه الرحلة ونسيان أحداث العالم المضطربة، فالحرب العالمية الأولى على وشك الوقوع، والغرب يفكر بالتركة الكبرى التي سيغنمها في حالة خروج الخلافة العثمانية من معادلة الشرق الأوسط .

أما رفاق وافل في الرحلة؛ فالرجل يعرفنا على رفيقيه، وهم: (المسعودي) وهو أفريقي من (مومباسا) تعمّد أخذه إلى إنكلترا ليساعده في مغامرة الرحلات التي تستهويه، وثانيًا(عبد الواحد) وهو عربي الأصل من حلب ترعرع في برلين، وضمه إلى فرقته لاحقًا، وكانت رحلتهم انطلاقًا من بيروت، ثُم إلى دمشق مرورا بالخط الحديدي الحجازي، ثُم إلى المدينة المنّورة، ومنها إلى ينُبع، فإلى جدّة، ومنها إلى مكّة المكّرمة، وفي مكّة المكرمة كانت رحلة الحج التي خصص لها هذا الكتاب وعنونه بها.

واجتمع الثلاثة في (مارسيليا)بفرنسا للتخطيط للرحلة أولا، يوم الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٩٠٨، وقد كان الحج في تلك السنة يوافق الأول من مارس، وبما أن (وافل) عقد النيّة (كما يقول)على التوجّه أولاً إلى المدينة المنورة لقضاء بعض الوقت في المدينتين، فقد قرر أن يقضي بعض وقته في دمشق قبل دخول إلى الأراضي المقدسة، وهمّ بمواجهة كيفية الحصول على جوازات السفر الضرورية

له ولرفاقه، وبعد أن حصل على الجواز التركي باسم (علي بن محمد٢٥عامًا) مواطن من زنجبار، وقد وقعت الوثيقة، ولم يكن أحد على علم بأن الرجل إنكليزي، وأنّ الرشوة لم يكن لها دور في هذه العلمية [١].

وقد عمل (وافل) بنصيحة زميله(المسعودي)المتعلقة بكون أهل الحجاز ليسوا دمثين كما نحن هنا، فلا يجوز التشاجر معهم أو تجعل نفسك في مأزق، فهم معتادون على الاعتياش من الحجاج، فلا تؤخذ على حين غرّة، ولا تتّهمهم بالغش، ولا تسرف في البداية، فقد تحتاج إلى مالك لاحقًا، وإن هوجمت في القطار، أو في القافلة، فلا تحاول القتال، تخلّ عمّا معك بهدوء كي لا يصيبك أذى[٢].

ويمر (وافل) أثناء رحلته الطويلة التي تنطلق من نقطة نائية جنوب مدينة دمشق حيث تقع محطة القطار المنطلقة للحجاز، بعد أن روى لنا إجراءات السفر المزعجة وعربات القطار المزدحمة بالحجيج من كل البلاد العربية والمسلمة، فضلا عن وجود عدد كبير من الجنود الأتراك ممن يتولون مهمّة توفير الأمن والحماية للمسافرين عبر الطريق الحديدي الطويل بين دمشق والحجاز[٣]، وبعد رحلة استمرت قرابة الأربعة أيام يصل هو ورفاقه حدود مقاطعة الحجاز عند مدائن صالح التي لا يسمح (آنذاك) لغير المسلم أن يتخطاها كما ينقل وافل[٤]، أمام قرية يقال أن النبي صالح (عليه السلام) كان يسكن في مكانها الحالي، وبدت أنها بديعة الصنع، فهي المدينة التي كان سكانها زمن النبي صالح (عليه السلام) من قساة القلب، وقد رفضوا الانصياع لتعاليم النبي بالإضافة إلى عقرهم ناقته العجائبية التي نهاهم عن الاقتراب منها، فكان قصاصهم أن زلزلت الأرض تحت أقدامهم تمامًا وقضت عليهم بمن فيهم زوجة لوط، كما يخبر القرآن بذلك في سورة الأعراف[٥]، وبعد ذلك واصلوا التنقل، حيث كانوا فرحين بأن الرحلة على وشك الانتهاء، وكان وصولهم في الساعة الواحدة، وقد علموا

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٤٩-٥١.
(٢)ينظر: المصدرنفسه، ص٧٧ وما بعدها.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٧٧.
(٤)ينظر: المصدر نفسه، ص ٨٠.
(٥) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٧٨-٨٠.

بوصولهم عندما سمعوا صوت المدفعية عن بعد، وبعد فترة قصيرة ظهرت مآذن الرسول المدببة، ثم المدينة نفسها، وقد أشار في رحلته لبعض الأماكن المعروفة كجبل أحد حيث المعركة المشهورة، وحيث قبر عمّ الرسول حمزة -عليه السلام- المقتول في هذه المعركة، والمدفون في أرض قريبة من أرض المعركة(١).

وكان السبب وراء تعلّمهُ اللغة، فقد ان الغرباء كانوا يتحدثون اللغة العربية الفصحى يتجنبون استعمال الألفاظ المحلّية التي تجعل كلامهم غير مفهوم، وهناك الكثير ممن يدعون إنهم عرب، وإنما في الحقيقة هم من العجم، أو الأكراد، أو الأتراك وغيرهم (٢).

وقد كان شديد الحرص على عدم إظهار هويته للناس، وإذ كان ممثلاُ بارعًا ينجح في كل ما يريد الوصول إليه، فضلا عن شدة الملاحظة، وقلّة الكلام مع الناس، ويذكر أنه من الممتع سهولة اكتساب عادات غريبة عندما يندمج المرء في مجتمع جديد، إن السرّ يكمن في لعب الدور بعفوية، وأن يصدّق المرء نفسه في دوره الجديد إن منفردًا أو مع الناس، فيتجنب المخالطة، ويتخذ عند السفر هيئة شخصية محترمة، أنيقة، وبرفقة خدم، ساعد في ذلك (كما يخبرنا) كونه خجولاً بطبعه، ميالا للعزلة والابتعاد عن الناس(٣).

ويبدو من خلال الحديث عن فقرات الطويلة للأحداث التي رافقت للتهيئة للرحلة أن السيد (وافل) كان عاقد العزم على تنفيذ هذه الرحلة رغم الصعاب والتحديات، وأنه عاهد نفسه على أن لا ينفضح أمره بين المسلمين الذين ظلوا يحسبونه مسلما من مسلمي زنجبار، وكانت ملابسه المشابهة للباس العربي (آنذاك) محاولة منه لدرأ الشبهات، وإبعاد الأنظار عنه.

ج- صورة مكة في كتاب(آرثر جون وافل):

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص ٨٠-٨١.
(٢)ينظر: رحلة الحاج المعاصر الى مكة، ص٥٥.
(٣)ينظر: المصدر نفسه،ص٦٣-٦٤.

لما كانت الرحلة في جوهرها عبارة عن انتقال من مكان لآخر، ومحاولة لمعرفة الاختلاف الذي سيطرأ على المكان المزار جغرافية طبيعية وبشرا ومناخا وثقافة؛ فإن الرحالة سيدخل فضاء آخر مغاير تماما (تبرز فيه الخصوصية، وتتشكل مظاهر التناظر والتعارض والسجال الحضاري)[١]

ويرسم لنا المؤلف صورة كلية لمكة يختصرها بمشهد هيأة الرحالة وهو يؤدي الصلاة، ويصف لنا الأوروبيين والأتراك المسلمين بمعاطفهم الكبيرة وقبّعاتهم العالية، وأهل الأناضول بسراويلهم الفضفاضة وأسلحتهم الرائعة، والعرب من الغرب يظهرون كأنهم مستعدون لحضور جنازة، والبدو برماحهم وسيوفهم المعقوفة، وأما الهنود فقد كانوا ينجحون في الظهور بمظهر أشعث، وكأنهم الأفقر من بين الحاضرين على الرغم، من ذلك فأنهم أغنى من غيرهم. وهناك إيرانيون وصينيون وماليزيون ودزينة من الأعراق الأفريقية، ومصريون وأفغان وبلوش وساحليون، وعرب وجميع الأوصاف، ويمكن تمثيل نصف الأعراق على الكرة الأرضية في المسجد، وفي أيّ يوم خلال الشهر الذي يسبق الحجّ، ويمكننا تخيل الجلبة المتنوعة الألسن، وأن أيّ سلوك منهم يُعدَّ دراسة ممتعة بالنسبة لمؤلف الكتاب[٢].

وهكذا فقد قام (وافل) بكتابة تقرير مفصّل عن مدينة مكة في كتابه هذا من خلال تدوينه لمشاهداته، وما عاينه من أمور في عالم مكة، وقد وجدنا إن الصورة التي رسمها لمكة تشمل مجموعة من المجالات التي حظيت باهتمامه سنحاول إيضاحها بالآتي:

١-الموقع، والمناخ:

يذكر دومينجو باديا تقع مدينة مكّة في وادٍ متوسط عرضه حوالي مائة وخمس و خمسين ذراعًا على خط يجري من الشمال إلى الشرق، وكذلك يحدهُ من منطقة

(١) الخطاب والمعرفة، إبراهيم الحجري، الرحلة من منظور السرديات الإنثربولوجية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٤.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكة ، ص٩٧.

الجنوب إلى الغرب ما بين الجبال المحيطة، فإن المدينة التي تمتدُّ بطول الوادي تأخذ شكلاً غير مُتناسق أو مُحدَّد الجوانب، وقد تكون متداخلةً مع الجبال المحيطة بها، وهناك خريطة تمثل المدينة تعود إلى القرن التاسع ترسم مسارات الشوارع الرئيسية لمكة، لكنها لا تبين الشوارع، والحارات الجانبية، وقد كلفني هذا جهدًا ووقتًا في محاولة معرفة أماكنها(١).

وقد ترك لنا (وافل) وصفا دقيقا لجغرافية مكة وما جاورها من المدن والأودية والقرى، إذ كانت مكّة المكرّمة تقع في أرض مفتوحة على علو ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتحيط بها جبال من ثلاث جهات، وعلى بعد خمسة أميال إلى عشرة أميال، وأنها مفتوحة على الجهة الجنوبية، وتتطاول المدينة بالامتداد إلى نحو ميل واحد في أقصاها، وهي -في الواقع- تتكون من مدينتين متصلتين، وأما المدينة القديمة التي يحيطها سور؛ فهي تضم المسجد وأغلب المساكن والمحلات التجاريّة(٢)

وهناك قسم آخر هو القسم الحضري حيث تتجمع فيه القوافل عند الوصول أو قبل المغادرة، وقد أحيطت هذه المساحة بسور داخليّللحماية، وفيه عدّة بوابات أطلق عليها أسماء مدن تتوجه إليها القوافل: إحداها (مثلاً) باب الشام، وأخرى باب مكة، وهناك من يستقى الماء من عدّة آبار وفيرة عذبة، وهناك مزارع نخل وثمار تحيط بالمدينة وتمتدّ عدّة أميال، وهناك محطة سكّة الحديد غربي المدينة على بعد حوالي ربع ميل خارج الأسوار(٣).

وتقع مدينة مكّة على حافة أرض جبلية وعرة تمتدّ إلى داخل جزيرة العرب، وكذلك تقع المدينة في وســـط واد ضـــيق لا يبين من جهة البحر، فلا ترى أيّ أثر

(١) ينظر: رحلات علي باي العباسي(إلى مصر و الحجاز و فلسطين و دمشق)، دومينجو باديا إي ليبليش، ترجمة وتقديم : د. طلعت شاهين، مراجعة : أحمد عبد اللطيف، أبو ظبي دائرة الثقافة و السياحة، ط١، سنة٢٠٢٢، ص٢٠١.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٨٥.
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٨٦.

للمدينة إلا عندما تصل تقريبًا إلى بوّابتها، أما الوادي فهو يمتدّ إلى الشمال الشرقي و الجنوب الغربي، و لا تظهر له نهاية [١].

وقد وصف هذا الرحالة المسافة من مكّة المكّرمة إلى جدة (مثلا) بحدود أربعين ميلاً تقريبًا، وهما متصلتان بطريق محميّة بمعاقل أو حصون صغيرة لا تبعد عن بعضها أكثر من مدى رصاصة بندقية، أما تربة مكّة فهي تربة قفراء بالكامل –تقريبًا- فلا ينبت فيها أو حولها أي نبات، ويعتمد سكانها –كليًا- في مؤنهم على مصادر خارجية، وكذلك في تأمين الغذاء والعلف لكل هذه الجمال الموجودة عند الأهالي والمتوافدة أثناء موسم الحج، التي قد تجد مكانًا للرعي ما بين الجبال[٢].

أما طقس مكّة فليس بالطقس الجيّد مع أنّه لا يُعدَّ غير صحي، وقد ذكر المؤلف أنه حارّ طوال السنة وجاف جدًا، ويشير إلى أن هناك تساقطا للأمطار مرّة أو مرّتين في السنة فقط، لكن عندما تهطل الأمطار فإنها تعوّض ما فاتها وتغوص مكة بين الهضاب المحيطة بها بشكل يمنع النسيم أن يصلها، فتزيد الحرارة المنعكسة من سطح الهضاب الصخريّ الوهاج في النهار، وتجعل الجو خانقًا في الليل، وفي السنين التي يصادف موسم الحجّ فيها في الشتاء؛ فإن الحكومة والطبقة الغنية من المواطنين تتوجّه إلى الطائف، وتبعد المدينة ثلاثة أيّام إلى الجنوب الشرقي، لأنّها أكثر برودة من مكّة، وفيها وفرة من الماء، وهي ذات أرض خصبة نسبيًا.

٢- عمران مكة وأسواقها:

كانت البيوت –كما رآها وافل في مكة- متراصة، ولا سيّما في منطقة شمال البيت الحرام، وهي تمتد على هيأة هلال يتجه من الشمال إلى الشرق وحتى الجنوب الغربي، وقد كان امتداد المدينة على خط يقدّر بحوالي تسعمائة قصبة طولاً، ومائتين و ست قصبات عرضًا، وعلى الرغم من أن الشوارع الرئيسية غير منتظمة، إلا أنها لا تخلو من جمال، وذلك بسبب واجهات البيوت الجميلة والرائعة والنوافذ الواسعة

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة ، ص١٥١.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٥٨-١٥٩.

والفخمة التي تشبه الكثير من البيوت الموجودة في شمال أفريقيا، وقد كان لها وقع على نفسية المؤلف، إذ ظنّ أن علاقة المباني بالحس الهندي أو الفارسي الذي أثّر في العمارة الإسلامية خلال الخلافة العباسية في بغداد وفي أماكن أخرى من المشرق العربي[١]، أما شوارع مكة فهي واسعة ونظيفة بشكل عام، وجميع المنازل تتكوّن من ثلاثة أو أربعة طوابق، وأما السوق الرئيسة فهي مسقوفة كما في دمشق[٢].

وكانت الأسواق مكتظة بالكثير من الناس، ومع أن مكة تعدّ أكبر من المدينة المنّورة، وتعداد سكانها دون الحجيج يصل إلى سبعين ألفًا، مع إنّي شخصيًا أستطيع أن أزيد على هذا العدد بحرية، والأسواق تبقى قادرة على تلبية طلبات الحجيج الذين وصل تعدادهم في هذا الأسبوع إلى خمسمائة ألف، ويجب إيجاد مساكن لمعظمهم، إن المباني المتواجدة في المدينة تفوق حاجة السكان بالعادة.

وكانت الصناعة المحلية غير متوفرة هنا، وقد تفشل في إيجاد أيّة سلعة تحمل خاصية المكان، فالبضائع تستورد من جميع أنحاء الشرق مثل الجرار والأقمشة من سوريا، ومع أنّ أسواق مكة ليست أسواقا بالمعنى المعروف؛ لأن البيئة غير منتظمة الأبعاد، وإنّ قلة المساحات الفارغة لا تسمح بحرية الحركة، فقد كانت الأسواق في مكّة محددة بشارعين طويلين ضيقين، وعند ازدحام الأسواق بالحجاج المهتمين بالتسوّق فلن تجد مكانًا تشقّه بينهم، أما الأسواق العامة فتوجد على امتداد الشوارع الرئيسية بوسط المدينة، وفي طرقات الأسواق يقف بعض الباعة المتجولين، مستظلين أسفل مُظلات مقامة على عصي ومُغطاة بالقماش، وبعضهم الآخر يقف في مجرد مكان خال تحت الشمس تظله قطعة قماش ممتدة على ثلاثة عصي تتجمع في الأعلى مُشكلة حاملاً يقيهم حرارة الشمس[٣].

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٢٠.
(٢)ينظر: المصدرنفسه، ص١٥٧.
(٣)ينظر: رحلات علي باي العباسي، ص٢٠٣.

ولأن الكوليرا كانت متفشية في العام الذي دخل فيه (وافل) إلى مكة نجده يقول عن طريقة بيع اللحوم التي شدد على كيفيّة طرحها لمنع تفشي المرض في أسواق مكة: إذا أردنا تناول بعض اللحوم علينا أن نسوق حيوانًا على قدميه، فهو خير من أن تحمله ميتًا مسافة ربع ميل، وقد وقع نظري وابن (الحملداري جعفر) على خروف سمين جدًا، وقررنا أن نأخذه معنا، بما أننا لا ننوي أن نحمله فقد رشونا أحد الحراس ليتغاضى عن مروره، ويضيف: إنه لسوء الحظ، وفي أثناء طريق العودة لفتنا نظر أحد الأطبّاء المسؤولين عن الترتيبات الصحية، فهرع إلينا على ظهر جواده، معترفا (أن براقش جنت على نفسها)، ويختم: لقد اضطررنا أن نرسل الخدم لإحضار بعض اللحم(١).

والمسلمون لا يحلّ لهم أكل اللحم إلا إذا كان الحيوان قد ذُبح على الطريقة الإسلامية، إذ تختم اللحوم بالعلامة الدالة على الحلال بختم من الحكومة، ولا بد أن يُبين للمستهلك عند طلبه، وهم لا يقربون الطعام الأوروبي في حال دخلت فيه منتجات الخنزير، إذ يجب تجنّب المسلم تناول أيّ طعام معروف باحتوائه لحم الخنزير لكونه لا يطابق روح التشريع الإسلامي عندهم(٢).

ولم يكن الطعام في أسواق مكة مقصورًا على اللحوم والبقوليات، فقد كانوا يأكلون الأسماك مقلية، وكان طعمها شهيا جدًا، كما هو الحال مع سمك البحر الأحمر، لكن (وافل) تزعجه طريقة عرض السمك في الأسواق حيث يعلوه الذباب المتطاير في عربة يدوية يدفعها البائع باسترخاء (٣).

٣-حركة المجتمع ونشاطه:

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٨٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٥٧-٥٨.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص١٣٥.

تدخل حركة المجتمع ضمن أعرافه الثقافية وتقاليده المتوارثة، ولذلك فهي أدخل في خصوصية المجتمع من سواها، لأنها تمثل خصوصية المجتمع المعبّرة عن طبيعة ثقافته، ولعلّ هذا ما جعل الرحالة على اختلاف مشاربهم يركزون على تقاليد المجتمعات وثقافاتها بهدف معرفة الاختلاف والتمايز بين الأنا والآخر، فالرحالة كلّما (زار مكانا غير مكانه يندفع للبحث في مستجدّاته حتى ينقل معرفة الآخر، ويتعرّف على خصوصيّته كي يتزود بأكثر حصة تثري رصيده الحكائي)[١]، وقد وجدنا بعد تقصّي هذه النقطة في كتاب (وافل) أنه اهتم بالأمور الآتية من حركة المجتمع فيما يتعلق بالجانب الثقافي لمشاهداته لأهل مكة الذين هم جزء من مشهدية المكان المصور.

ا-الصلاة والعبادات:

تشكل الصلاة عمود الإسلام وبها يعرف المسلم خارج الديار الإسلامية، وبأدائها بأوقاتها تعلو قيمة المسلم بين المسلمين أنفسهم، وبما أن(آرثر جون) فقد قضى رحلته متخفيا؛ فقد كان ممثلاً بارعًا لينجح في مسعاه، وقد كان شديد الملاحظة وقليل الكلام، كان يقول أنه من الممتع سهولة اكتساب عادات غريبة عندما يندمج المرء في مجتمع جديد.

وهو يدرك أن أي خطأ في الصلاة، أو عند زيارة الضريح، أو حتى في إجابة عند حضـــور درس ديني قد يكون مميتًا[٢]؛ إذ كان (آرثر جون) يصـــور هيأته في السفر–كما أسلفنا- على أنه شخصية محترمة وأنيقة، تمشي برفقة الخدم بوقار يزيّنه لباس المسلمين الذي اتّخذه لنفسه، وكان شديد الانتباه لتجنّب كشف سرّه، حتى وإن لم يقم بكلّ الواجبات الدينية.

(١) أدب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٧م، ص ٥٨٧.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٦٣.

ولم تقتصر العبادة على الصلاة فقط، وإنما على الصيام كذلك، إذ أورد المؤلف أنّ كلّ منافق يتظاهر بالصيام جهرًا لم تكن لتردعه عن الإفطار دون عذر، مذكّرا أن عذاب جهنّم واليوم الآخر سيطاله، ولم يجد وافل في الصيام مشقّة تذكر، لكن الحرمان الرئيس والحقيقي –بحسبه - كان بسبب الامتناع عن التدخين(١).

وحينما التفت (وافل) في كتابه إلى صلاة المسلمين تحدث عن عدد مرات أدائها، وعن أوقاتها التي حددها الإسلام بخمس مرات، فالتزم بها المسلمون، وأدوها على انفراد، أو مجتمعين بإمامة إمام له مجموعة شروط، ثم التفت إلى المساجد التي تؤدى فيها الصلاة، فوجدها بناء كبيرا بلا أثاث سوى الفرش الكبيرة، وقطع صغيرة من السجاد، وهناك في كل مسجد مكان مخصص للوضوء تنفصل فيه النساء عن الرجال.

وتنبّه إلى الطريقة التي تؤدى فيها كل صلاة، فلحظ إن الإمام يجهر في صلاتي الفجر والعشاء، ويبقيها سرّية في الصلوات الأخرى، ويضيف:(وكنت قد أممت المصلين بنفسي عدة مرات حين لم يكن هناك شخص آخر يليق بهذا المقام حين حانت الصلاة)(٢)، أما صلاة الظهر من يوم الجمعة و صلوات الأعياد فهي صلاة جماعة، إذ يخطب في الناس عالم دين معيّن لهذا الغرض، وقد تكون هناك خطبة يخطبها إمام الجماعة على المنبر للمصلين.

ويعالج الإمام المندوب القضـايا التي تخص المجتمع كل شـهر في المسـاجد، وبعد ذلك تكتب الخطبة في مكّة، وتعمّم على كل المساجد في العالم الإسلامي، وبعد إتمام خطبته يرفع إمام الجماعة يديه بالدعاء والتضرع لله لنصرة الإسلام، وهداية الضالّين وغيرها من الأمور الأخرى الواجبة.

---

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص٦٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٧.

ويسجل (وافل) أن الدعاء للخليفة العثماني لا يرفع في مساجد الشيعة، لأنهم لا يعترفون بخلافة السلطان العثماني أميرا للمؤمنين[١].

ومن الأمور التي يسجلها (وافل) أن كُلَّ صلاة تتضمن عددا معينا من الركعات، أكثرها أربع، وأقلّها اثنتان، وبعد ذلك تأتي التسابيح في آخر الصلاة باستعمال مسبحة مكوّنة من تسعة وتسعين حجرًا على عدد أسماء الله الحسنى، وبعد ذلك ترفع الأكف إلى الأعلى، ويدعو المصلّي بما شاء، وبما يضمرهُ في قلبه.

والصلاة فيها أربع ركعات تحتاج بعض دقائق من خمس إلى ثماني دقائق أو أكثر، إن كانت وراء إمام الجماعة، ولعلّه ليس من الضروري إقامة هذهِ الصلوات الخمسة المفروضة في وقتها المحدد المعروف، إذ من الممكن تأديتها في وقت أخر[٢].

ويختم حديثه عن صلاة المسلمين التي حضرها في مكة بقوله: إن هذهِ الممارسات الدينية قد تلعب دورًا كبيرًا في حياة المسلم (الشرقي) لدرجة كبيرة[٣].

ومن العبادات التي لحظها (وافل) وهو يرسم صورة مكة التعبد بقراءة القرآن، إذ شهد من يقرأ القرآن بنغمة رتيبة خافتة متمايلاً بطريقة تجذب المتلقي، وقد تكون متميزة ترافق دائمًا تلاوة القرآن، ويلتفت -كذلك- إلى تجمعات متعددة لعلماء الدين لإعطاء الدروس، والاستماع إلى تلاوة للقرآن، وشرح غوامضه[٤].

ب- الإحرام وطقوسه:

بنظرته الموضوعية المعتادة ينظر (وافل) إلى طقوس الإحرام التي يمارسها المسلمون موسم الحج، فارتداء ملابس الإحرام إجبارية لمن يقترب من مكة إلى تأدية الطواف، وتقبيل الحجر الأسود، ولا بد من ارتدائها خلال أيام الحجّ الثلاثة، أي ما يسمى (أيام التشريق)، وكان بعضهم يرتديها طوال مدة إقامتهم في مكّة

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ٦٧- ٦٨.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، والصفحات نفسها.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٨-٦٩.
(٤) ينظر: المصدر نفسه، ص٩١.

المكرّمة ككفّارة باختيارهم الخاص، أما بعضهم الآخر فلا يستغني عنها في زيارة ضريح الرسول الكريم في المدينة المنوّرة، ذاهبا إلى كراهية ذلك عند أصحاب المذهب الشافعي(١).

ويفسر (وافل) تلك المظاهر التي يؤديها المسلمون بقوله: هناك حكمة من وراء ملابس الإحرام، وهي النقاء والقنوت، وإن كل من يدخل بيت الله الحرام يكون مرتديا لهذا الزي المحدد مهما كان مستواه الاجتماعي أو الاقتصادي، فالزي يجمع الحشمة بنقاء اللون الأبيض، وملابس الإحرام للرجال من ثوبين: أحدهما يكون حول الخصر، وأما الآخر فيكون على الأكتاف، ولا يُسمح بقطعة أخرى، وحتى الحزام غير مسموح به، ويترك الرأس مكشوفًا، ولا يُسمح باستعمال المظلات مع أنّه يسمح بها للمقعدين والطاعنين في السن، وقد يختار بعض الحجيج ارتداء ما يشبه التنّورة، وكسوة من القطن بدلاً من المنشفتين(٢)، أما إحرام النساء فيكون ثوبًا كتّانيًا طويلاً يغطيهنّ تمامًا، من رأسهن إلى أخمص الأقدام فضلاً عن إلى برقع من القش، ومن الوقار حلق الرأس والجسد قبل ارتداء ملابس الإحرام باستثناء الصدر وطبعًا اللحية والشارب.

ومن يرتدي هذه الملابس يُعدَّ محرمًا، وعلى هذه الهيأة من الإحرام يُسمح له بدخول الحرم بزي المُحرم(٣).

ويرسم (وافل) صورة لهذا المشهد المهيب الذي تتوافد فيه الحجيج من كل حدب وصوب، ومن كل عرق وجنس بلباس واحد وبصوت واحد، فيصفه بالقول: أصبحت مكّة تشع باللون الأبيض رجالاً و نساء، أما أنا، فقد "ارتديت ثوبًا أبيض اللون، وجبّة سوداء وحزامًا ذهبيًا مزيناً بخنجر، وأما صديقي مسعودي فقد ارتدى زيّاً مناسبًا من زنجبار وكان يدعى (كانزو) مكوّن من معطف عسكري(قديم الطراز

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة ، ص ١٤٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٤١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٤٢.

بالطبع، حيث أني كنت قد دفعت فيه عشرة جنيهات من سنين خلت)، أما صديقي عبد الواحد فقد بدا صفراويًا بقفطان أصفر اللون اشتراهُ من دمشق"[١]. وبعد أداء الطواف يصف (وافل) توجهه إلى الصفا والمروة لأداء منسك السعي، والهرولة بين المكانين اللذين يبعدان عن بعضهما حوالي ثلاثمائة ياردة، فيقول: صلّينا عسى أن يتقبل منا مناسكنا، ثم حُلقت دائرة صغيرة من شعورنا معلنين انتهاء مناسك الإحرام.

وبعد ذلك لنا حرية ارتداء ملابسنا الخاصة، والعيش كأي أحد من أهالي مكّة أنفسهم إلى حين موعد الحج، وعند ذهابنا إلى المنزل كانت فيه راحة كبيرة حيثُ كنا مرهقين، وقد كنا نمشي حفاة متقرحي الأقدام، وإن الركض حفاة جيئة وذهابًا على أرض وعرة لم يكن ممتعًا خاصة عند دوسي على حصاة مدبّبة، مرة أو مرتين، إذ خرجت مني ألفاظ لا تليق بما نفعل، وعند استحمامنا وتغيير ملابسنا قد فعلاً فعلهما في تغييرنا مزاجنا إلى الأفضل وإلى الأمور بإيجابيّة[٢].

وهكذا يحدد لنا (وافل) ملامح الصورة كاملة على أن أيّ شخص يؤدي فريضة الحج يكون منفردًا، ويقوم بالصلوات والشعائر الدينية باسم الشخص الذي ينوب عنه، وقد يُذكر أن كثير من الناس من الطائفة الشيعة تقوم بهذا الحجة[٣].

وقد تتكون مناسك الحجّ من الآتي: يتم تحديد وقت ويوم معيّن من كل سنة لأداء مناسك الحج، في الثامن من شهر ذي الحجة، وقد يتوجب على كلَّ مسلم عاقل صحيح الجسم والبدن المدينة قبل حلول الليل، ويتوجه إلى قرية اسمها (منى) بعد أداء المناسك، وفي اليوم الثالث عليه أن يعود إلى مِنى في الصباح لرمي الجمرات على الشيطان ثلاث مرّات، ثم يتوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء الطواف والسّعي، ويعود إلى منى للمبيت فيها، أما اليوم الرابع فهو يوم عيد ويُقضي في مِنى، وفي ظهيرة اليوم الخامس يعود إلى مكّة حيث يرمي الجمرات مرة أخرى، ويستمرّ الإحرام من أول

(١)رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٨٥.
(٢)المصدر نفسه، ص ١٥٥-١٥٦.
(٣)المصدر نفسه، ص١٧٣.

خروج من مكّة إلى أول عودة إليها، لينزع الإحرام، ويبدّل بأفضل هندام يستطيعه الحاجّ، ويكون جديدًا ما استطاع. وبعد إتمام الشعائر يُطلق على المرء المؤدي لها لقب (الحاجّ) قبل اسمه أو بعده، و يميزّ في حياته برداء الرأس الذي يختلف من بلد إلى آخر(١).

ولا يفوت (وافل) أن ينقل لنا ما كان يشغل بال الجميع قبل الحجّ، وهو المرض الذي كان يتفشى بين الحجيج –آنذاك- بسبب تردي وسائل مقاومته، ولعل وبائي الطاعون والكوليرا كانا أكثر هذه الأمراض انتشارا، وكان الخطر مهيمنًا أكثر من العادة، فالوباء - كما ينقل وافل- بدأ قبل شهر من الخروج من مكّة، وقد اشتد الأمر تدريجيًا، وفي يوم عرفة اتخذ صفة الوباء أو المرض الفعلي، وان حصيلة الوفيات كانت مقلقة، وقد جوبهت الحالة بقوانين صارمة تمنع الناس من الخروج إلى مكّة دون وقاية، وعلى الرغم من أنّ حالة الحجر الصحي لا تغني ولا تشبع من جوع، فقد كانت الحالة الصحية هذهِ السنة جيدة قياسا بغيرها(٢).

وينوّه (وافل) إلى المنزلة التي كان يحظى بها (الشريف حسين ت ١٩٣١م) مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية، والمنادي باستقلال العرب عن السيطرة العثمانيّة، وقد أفرد له عدة صفحات من كتابه بعد أن شاهد موكبه الملكي البسيط في مكة، مترددا في الذهاب لتحيته إسوة بمرافقيه بسبب خوفه من انكشاف أمره، واصفًا إيّاه بالتواضع وبأنه محبوب من الناس، وإنه رجل يستحق التقدير لأنه يحاول استعادة الخلافة الإسلامية لا على طريقة العثمانيين المعروفين بالاستبداد والظلم، وإنما بإحياء سنة الخلافة الراشديّة السائرة على هدي سنة الرسول محمد (ص) في الحكم والإدارة(٣).

ج-المجتمع وملامحه:

---

(١) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، ص١٧٣- ١٧٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٨٠ وما بعدها.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص١٨٥- ١٨٨.

صورت لنا الرحلات السابقة نساء مكّة أنهنّ يتمتعنّ بحُرية أكبر من أية مدينة مسلمةٍ أخرى، على الرغم من الفقر وبؤس السكان، فالنساء في مصر(مثلا) يغطين وجوههن بقماش تُطل منه فتحتان للعينين تسمحان برؤية نصف الوجه. ويذكر الرحالة البرتغالي دومينغو باديا أو(علي باي العباسي) أن بعض المصريات في أواخر القرن التاسع عشر عند زيارته لمصر قد تركن وجوههن مكشوفة بالكامل، وقد يرتدين عباءةً أو شرشفًا كبيرًا مخططًا طوليًا وعرضيًا بالأزرق والأبيض تمامًا كما هو الحال في الإسكندرية [1].

ولعل أغرب ما سجّله (آرثر جون وافل) في مشاهداته عن المرأة التي يعكس حضورها والتعامل معها حضارة المجتمع ومواقفه منها بوصفها شريكا اجتماعيّا لأخيها الرجل؛ هو زيارته لسوق النخاسة الذي ذكر أنه زاره عدة مرات[2]، ورأى إجراءات بيع الجواري اللواتي تتراوح أسعارهن بين العشرين جنيهًا إلى مئة جنيه، ويزداد المبلغ إذا كانت النساء (كرجيّات) أي من جورجيا أو (جركسيّات)يملكن مفاتن خاصة وقدرات علمية، مسجلا قلّة حضورهنّ هذهِ السنة بسبب تفشي داء الكوليرا، وعرضَ التجار له بتأمين واحدة في حالة طلبه وموافقته على شروط الكفالة، لكنه يعترف بأنّه لم يجد بين الحاضرات اللواتي تفحّصهنّ من تصلح منهنّ أن تكون هدية .

ويحاول (وافل) تعليل هذه الظاهرة التي لم تنل إعجابه لاقترانها بفكرة الاستعباد وسلب الحريات التي رفضتها أوربا بعد الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩م، بقوله: إن الرقّ المذكور هنا هو ببساطة تجارة المحظيات القانوني وإن هذه الفتيات بعن من قبل عائلاتهن، ومع أن هذا المبدأ خاطئ، فهو يظلّ الحل العلمي الوحيد للنظام الذي يعيشون في كنفه... فالمجتمع الإسلامي مبنّي على مبدأ يختلف عن الفكر الغربي في تحديد العلاقة بين الجنسين، ولا يتواجد الرق من حيث كونه عملاً غير مدفوع الثمن ومفروضا غصبا في أيامنا هذهِ، وإن العبد إن لم يرض عن ظروف عمله باستطاعته الهرب بكل سهولة من سيده الذي اشتراه.

(١) ينظر: رحلات علي باي العباسي، ص٢١١.
(٢) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، ص ١٦٢-١٦٣.

وتثيره تصرفات الفتيات عند الخضوع لعملية الفحص المضنية قبل البيع فيسجلها بدقة، فيقول:(إن الفتيات الصغيرات يخجلن ويقهقهن، وقد يتظاهرن أنهنّ يخبئن وجوههن، عندما يكون الشاري صغيرًا في العمر، ولديه روح الفكاهة والمرح الذي يضفي على الشاري، أما الكبيرات في السن واللواتي فقدن جمالهن، وفقدن الأمل أيضًا في العثور على شارٍ، فيجلسن شاخصات البصر و فاقدات الاهتمام بما يجري حولهن)[١].

ويحاول(آرثر جون وافل) أن يعرض رأي الإسلام للقارئ عن ظاهرة بيع الجواري في سوق النخاسة، وما فيه من أمور تمس الكرامة الإنسانيّة للنساء عموما وللنساء المعروضات للبيع على وجه أخص، فيقول:(إنّ الإسلام لا يشجع على هذا الأمر -بأي حال من الأحوال- فهو بالكاد محتمل، وتحت شروط قاسية جدًا، وإذا كان لدى عبد أيّة شكوى من إساءة ما فان القاضي سرعان ما يصلح الأمر في قضايا الإساءة الفضّة، وقد تعطى الحرية للعبد المساء إليه من قبل مالكهُ، وإنّ القانون يرعى الرقيق أفضل من قوانين البلاد الأخرى المتعلقة بالخدم الاعتيادي، ولا يخلو الأمر من إساءات، إنما يعود اللوم على تطبيق القانون، وليس على القانون نفسه، وغاية ما يجول بخاطر كل عبد في السوق هو أن يجد له سيّدًا بأسرع وقت ممكن)[٢] .

وبالاستناد إلى ما تقدم نستطيع أن نحدد ملامح الصورة التي رسمها (وافل) لمدينة مكة، وهي صورة حيادية تحيل على واقع عيني مشاهد دون تحريف أو تزييف أو تشويه أو إضافة، أما ملامح هذه الصورة فيمكن تحديدها بالآتي.

-حاول (وافل) أن يرسم صورة مطابقة للواقع الذي عاينه، من دون وجود دوافع ذاتية أو أيديولوجية للتلاعب بمفردات الصورة المنقولة، لذا نستطيع القول إن الصورة المرسومة لمكة من خلال هذه الرحلة التي قام بها (وافل) للدوافع التي ذكرناها وحتى للدوافع الأخرى التي لم نستدل على وجود برهان تاريخي يربط (وافل) بالمؤسسة

(١)ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، ص١٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

الاستعمارية البريطانية بشكل مباشر، نستطيع القول إن الوظيفة التي تؤديها هذه الصورة هي وظيفة مرتبطة بمهمتي (النقل الحرفي) و(التعديل) لما ارتسم في أذهان الأوربيين، والبريطانيين خاصة عن المسلمين، وعن واقعهم الحضاري من خلال محاولته عكس صورة مدينة هي بمثابة القلب للعالم الإسلامي منذ البعثة النبويّة المطهرة وحتى يومنا هذا.

- تنوعت صـــورة العوالم المنقولة في هذا الكتاب الذي كان يعتمد على أســـلوب العرض بهدف إعطاء صـــورة كاملة عن المدينة المزارة، وبهدف تغطية ما يمكن تغطيته من عوالمها الجغرافية والمناخية والطبيعية والثقافية الاجتماعيّة التي أخذت منها أبعادها الدينية الحصة الأكبر في (رحلة الحاج المعاصر إلى مكة).

-لا تغفل الباحثة قيام هذه الرحلة على عنصر السرد التشويقي الذي يصوّر الآخر (المسلم) بثقافته وديانته وهمومه من دون وجود عقدة (التمركز) التي عرف بها المستشرقون والمهتمون بشؤون الإسلام وحضارته وثقافته من الغربيين عندما يكتبون، أو يجعلون الشرق المسلم ميدانا لأنشطتهم الكتابيّة، فآرثر جون وافل كان يحرص على أن يتصرف كأنه مسلم من المسلمين، وكان في كثير من الأحيان يدافع عن المسلمين وعن ديانتهم من دون استعلاء أو شعور بالفوقية يحتّمه انتماؤه إلى أكبر قوة عسكريّة اكتسحت قارات العالم بمدافعها وأساطيلها وطائراتها الحربيّة، وأعني بذلك بريطانيا العظمى.

-وتبرز قيمة هذه الصورة (الواقعية) التي حدد ملامحها (وافل) من خلال كتابه المذكور من قدرة كاتبه على تحقيق مبدأ الموازنة بين عالمه الداخلي ككاتب مسؤول واع، وله تجربة حياتية وإنسانيّة عميقة تعكسها الظروف الصعبة التي أنشأت هذه التجربة، وقد أشرنا لبعضها من خلال ثقافة (وافل) وسيرته في المبحث الأول من هذا الفصل، وبين الواقع الخارجي المحيط بالرحالة في مكة، وهو واقع تعهد الكاتب في مقدمة كتابه على أن ينقله للقارئ الأوربي والإنجليزي من دون إضافات، ومن دون

إكراهات قسريّة تفرضها ظروف انتمائه وارتباطاته التي لم نجد لها إثباتا بالمؤسسة الاستعمارية التي كانت نشطة جدا، زمن كتابة هذه الرحلة مطلع القرن العشرين.

الفصل الثانـي

أنموذج الصورة المغرضة في كتاب: (اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام) لليون روش

المبحث الأول: النشأ و التكوين المعرفي.

المبحث الثاني: صورة مكَّة في كتاب (اثنتان و ثلاثون سنة في رحاب الإسلام) ليون روش.

أ-النشأ.

وُلدَ (ليون روش) المُلقب بـ (حاج عمر) في مدينة غرونبل حيث تُعدَّ هذهِ المدينة(مركزًا جامعيًا وهي مدينة صناعية مهمة)، في فرنسا في تاريخ ٢٧ أيلول/ سبتمبر ١٨٠٩م، وقد درس في مدارس مدينة غرونبل، وبعد ذلك في مدارس مدينة طولون (وهي أحدى المدن الفرنسية حيث تُعدَّ ميناء عسكريًا على البحر الأبيض المتوسط) إذ شارك والدهُ في الحملة الفرنسية على الجزائر عام١٨٣٠م، وقد استقر في الجزائرعندما دعاه والدهُ للالتحاق به، فلبى نداء والده في يونيو ١٨٣٢م[١].

وكان (ليون روشيه) ذا طموح واسع ميال إلى المغامرات، فانقطع عن الدراسة، واتصل بأحد التجار بمدينة مرسيليا، وكان صديقًا قديمًا لأبيه، إذ كلفه التاجر بمهمة تجارية مكّنته من زيارة كل من (كرسيكا) و(سردينيا) و(جنوة)، وكان –حينها- يبلغ من العمر الواحد والعشرين سنة، مما سهل له زيارة جميع أنحاء ايطاليا الشمالية لاحقا[٢].

وقد كان أبوه روش(ألفونس) ملحقا بهيأة الخدمات العسكريّة الفرنسيّة لـ(العتاد) أو ما يقال عنهُ (جندي) في مدينة الجزائر، وفي أثناء الحملة الفرنسية في شهر جويلية(يوليو)و يعنى الشهر السابع في سنة (١٨٣٠م) كان أحد أفراد جيش الغزو، وكان لديه اهتمام بالعمل الفلاحي في مدينة الجزائر وضواحيها، فكوّن مزرعة في سهل (متيجة)، ولما كان متعدد المهام فقد كتب إلى ابنه(ليون) يطلب منه الحضور إلى جانبه ليساعده في أعمال الفلاحة، وغيرها[٣].

---

(١)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام (مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز)، ليوش روش، نقلها إلى العربية وقدّم لها و علّق عليها: (محمد خير محمود البقاعي)، جداول،٢٤-٩-٢٠١٢، ص١٢-١٣.
(٢) ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب(١٨٣٢-١٨٤٧)، يوسف مناصرية، المؤسسة الوطنية للكتاب٣، شارع زيروت يوسف الجزائر، سنة١٩٩٠، ص١٣.
(٣) ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب، ص١٣.

وقد غادر (ليون روش) فرنسا في يونيو١٨٣٢م، للانضمام إلي والده الذي حصل على مزرعة في الجزائر، ومكث في القارة الأفريقية ما يقرب من ٣٢سنة، وقد تعلم (ليون) اللغة العربية بسرعة كبيرة، وبعد عامين تم تجنيده مترجمًا للجيش الفرنسي في أفريقيا، ثم أصبح ملازما في سلاح الفرسان في الحرس الوطني الجزائري للمدة من لفترة (١٨٣٥-١٨٣٩)[١].

ولما أسس الدوق (دي روفيجو) هيأة الحرس الوطني، فقد عُين (ليون روش) برتبة ملازم في فرقة (الفرسان الخيالة)، وقد كانت هذهِ الفرقة ترافق الجنرال في الحملات القصيرة التي كان يقودها في منطقة هضاب متيجة[٢].

ولما كان ليون روش مُتشوقا لتعلم اللغة العربية؛ فقد واظب على تلقي دروس في العربيّة على يد الشيخ عبد الرزاق بن البسيط، وكان اجتماعيا ينفذ بين الناس، إذ خالط أهل الجزائر في المقاهي وجلسات المحاكم الشرعية، وقد تعرف على العائلات الغنية ذات النفوذ، ولا سيما بعد أن تولى الترجمة في الإدارة الفرنسية في الجزائر[٣].

وفي مدة الاحتلال الأولى للجزائر لم يكن هناك مترجمون يحسنون اللغة العربية الجزائرية، فكانت إجادة (ليون روش) لها فرصة قد ساعدتهُ على التعيين مترجما للقوات الفرنسية، وهي مهنة من الصعب الحصول عليها، لذا عمل على زيادة جهوده في تعلمها وإتقان مصطلحاتها، وقد ساعده أستاذه عبد الرزاق الذي سهل عليه تناول المفردات اللغوية المتعلقة بعلم القانون والخصومات بالإسلام، هذا ما ساعده على تعلم الكثير من المصطلحات لأداء المهمة المكلف بها على أكمل وجه، ولم يكتف

(١) ينظر: رحلات الغربيين إلى الحجاز(٣-٤)،عبد الله إبراهيم، موقع جريدة الرياض السعودية
.//www.alriyadh.com
(٢) ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، ص١٥.
(٣) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام (مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز)، ليوش روش، نقلها إلى العربية وقدّم لها و علّق عليها: (محمد خير محمود البقاعي)، جداول،٢٤-٩-٢٠١٢، ص١٢-١٣.

بدروس أستاذه فقط، بل صار يدرب لسانه على تكلم العربية ونطقها بالشكل الصحيح، من خلال اختلاطه بالناس ويذهب للمقاهي، ويكثر لخروج مع الفلاحين للصيد[١].

وقد وقع في حُب فتاة أرستقراطية جزائرية، فأعلن إسلامهُ لاستدراج أهلها للموافقة على الارتباط بها، وعندما تقدم لخطبتها رفضوه لأنه نصراني، وقد اهتم بعد إعلان إسلامه بين يدي الأمير عبد القادر الجزائري، بمحاولة اختراق جيش الأمير المقاوم للاحتلال (عبد القادر الجزائري ت ١٨٨٣م) بهدف إسقاطه والقضاء عليه[٢]؛ إذ بدأ يرسل جميع المعلومات إلى الفرنسيين، ويعرفهم بجميع أحوال الأمير العسكرية والسياسية وغيرها. وقد بعث أول رسالة له من معسكر الأمير إلى أحد الفرنسيين إلا أنه لم يذكر اسمه وأشار إليه (صديقي) واستهلها بإعطاء وصف دقيق عن شخصية الأمير، في مظهره الخارجي وأوصافه الجسمية والدينية والثقافية، وقال أنه رجل عادل يحترم تعاليم دينه؛ والمسلمون يخضعون له بسبب احترامه الشديد لتعاليم الإسلام، وسيره على نهج الخلفاء الراشدين[٣].

وقد كان (ليون روش) مرافقًا لعبد القادر الجزائري في حروبه الداخلية، وأثناء التنقلات الاجتماعية، وأصبح أحد الكتاب الخاصين المقربين من الأمير عبد القادر، وقد كان الأمير يرسلهُ إلى علماء الدين الإسلامي بعد أن أعلن إسلامه وزوجوه مسلمة، فقد كانت فرصة ليون روش للتقرب من المسلمين الجزائيين، لكي يعرف على كل ما كان يدور في البلد ليخبر بهِ القيادة الفرنسية[٤].

وقد عاش (روش) في مليانة مجندا نفسه في خدمة الأمير عبد القادر الجزائري، حتى غدا أحد كتابه المترجمين العاملين معه، وقد كشف من دون قصد

(١)ينظر: الجوسسة الفرنسية في الجزائر في العصر الحديث و المعاصر، الجاسوس ليون روش، جيدل عبد العزيز، دورية كان التاريخية، الجمهورية اللبنانية - بيروت، السنة الثالثة، العدد ١٠، ديسمبر ٢٠١٠، ص١٥-١٦.
(٢)ينظر: ليون روش قصة الجاسوس الفرنسي الذي عطّل مقاومة الاستعمار في الجزائر لسنوات، عبد القادر بن مسعود، ساسة بوست، ١٣ــ تموزــ٢٠٢٠.
(٣) ينظر:مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، ص٢٦.
(٤)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٣.

عن مهمته الاستخبارية حين قال للأمير: انه كان يأمل أن يحقق لبلاده فرنسا استسلام الجزائريين، وذلك بأن يقنع عبد القادر بأن السلام مع فرنسا أميز وأوفق وأكثر نفعا للمؤمنين الجزائريين الذين تمرغوا في همجية سوء الحكم التركي وبؤس إدارته، ولا يستطيعون في الوقت نفسه –أي الجزائريون- مواجهة دولة عظمى كفرنسا، ولعل السؤال الذي يطرح نفسه: كيف أن قائدًا وطنيًا بحجم الشيخ عبد القادر يرتضي لنفسه أن يعيّن جاسوسا مالم يتأكد من حسن نواياه، ومن صدق إسلامه؟[١]

لكن الدكتور (يوسف مناصرية) يرتاب من هذه الرفقة، ويدخلها في باب التعرف على الشؤون المالية والاقتصادية والعسكرية، وعلى الموارد الاقتصادية التي يدخرها الأمير لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وقد كانت الأوضاع المالية للجزائر سيئة بجيش متفكك وضعيف المعنويات، ولم يَّعدُ للأمير نفوذ في أغلب القبائل العربية الجزائرية، وفقا للتقرير الذي قدمه (روش) الجاسوس بصفة الصديق المقرّب[٢].

وقد توترت العلاقة بينهما، وففي أحدى المعارك طلب الأمير منهُ الذهاب معهُ إلى الحرب، لكنهُ تخلف عن الذهاب، فقال الأمير: أنك مسلم، ِفلَم التخلف عنا؟ فقال (روش): لم أكن مسلمًا، ولا في أي لحظة، ولن أحارب بلدي، وما زلتُ أعمل مع الجيش الفرنسي، إلا أن الأمير عبد القادر لم يخبر أحدا من القادة بما جرى بين الاثنين من كلام خاص.

وعند عودته إلى فرنسا ألقي القبض عليه من قبل الجزائريين، لكنه أفلت منهم مدعيا أنه في مهمة كلّفه بإبلاغها لفرنسا الأمير عبد القادر[٣].

وقد مارس (ليون روش) مهام كثيرة لوزارة الخارجية الفرنسية كمترجم، ففي عامي ١٨٤٥، ١٨٤٦ أصبح مندوبا رسميا (سكرتير مفوض) في طنجة، بعد أن

(١) ينظر: الخارجون عن النسق، ليون روشيه(ثلاثة عقود في رحاب الإسلام)، د. هاشم الموسوي، مركز الإعلام الدولي
https://imhussain.com/arabic/section٢٩/٢٧١.
(٢) ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، ص٢٦-٢٧.
(٣)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٣.

كانت له مسؤوليات في البعثة الفرنسية في المغرب، وحينما عقدت معاهدة طنجة بين فرنسا والمغرب في سبتمبر١٨٤٤م تعهد المغرب بمنع جميع المساعدات المادية والمعنوية بالجزائر، وكان (ليون روش) موفداً رسميًا إلى طنجة لبحث المسألة مع المغاربة الذين التزموا بعدم مساعدة الثوار وأميرهم[١].

ومن هذا نستنتج أن (ليون روش) أخلص لبلاده كثيرًا، سواء عندما التحق بالأمير(عبد القادر) من تلقاء نفسه، أم كان ذلك بإيعاز من الضباط الفرنسيين، ولذا كوفئ خير مكافأة بإعطائه منصبا مهمّا في الجيش الفرنسي، وتكليفه بمهمة كانت فيها خطورة شديدة على حياته، وكان منصبه عاليًا في الحكومة[٢].

وبعد أن قضى سنين عمرهُ في خدمة الجيش الفرنسي رقي إلى منصب وزير مفوض في العاصمة اليابانية، وكذلك في المغرب، وظل ينعم بهبات حكومته حتى وافته المنية عن عمر ناهز التسعين عاما في سنة ١٩٠١م.

ب-التكوين المعرفي:

ينقل مترجم الكتاب (محمد خير محمود البقاعي) أن كتاب (٣٢ عاما في رحاب الإسلام) هو مذكرات عن (ليون روش) في حياتهُ ورحلاتهُ، فيقول: أن رحلتهُ كانت محفوفة بالمخاطر، وكانت النجاة منها أشبه بالمعجزة الحقيقية، وكان أخطرها في إصدار الحكم عليه بصفته مترجمًا لدى السلطات الفرنسية الغازية، وفي إعلان حقيقة أُنْقِذ، إذ أنقذه الشريف الأكبر الذي أمر بمراقبة مبعوث الجنرال (بوجو) لكنه في الحقيقة يدافع عنه الخطر، كاد يحدق به[٣].

(١) ينظر: المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية(العتبة العباسية المقدسة).https://www.iicss.iq/?id=١٤&sid=٤٨٣.
(٢) ينظر: مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب، ص،٦٥.
(٣) ينظر: اثنتان وثلاثون في رحاب الإسلام، ص١٥.

وهكذا، فبعد أن نمت مشاعر الإعجاب الشديد بشخصية الأمير عبد القادر، وبعد التقرّب منه أعلن إسلامهُ الذي ظلّ محل شك وريبة عند الباحثين، وكل ذلك من أجل التقرب من الأمير عبد القادر وصولا إلى غايات كان يرمي إليها[١].

ولعل ذلك يعطي صورة مكثفة عن شخصية (ليون روش) القلقة، وقد أشار (يوسف مناصرية)إلى وجود كتاب آخر لليون روش عنوانه:(عشر سنوات في الإسلام١٨٣٤- ١٨٤٤).

وهناك علاقة بين الكتابين، إذ يتحدث روش عما كان يدفعه إلى كتابة مذكراته، بإلحاح شديد من أسرة المارشال الفرنسي (بوجو)لكونهما مرتبطين ببعضهما كل الارتباط عبر العمل لمجد فرنسا، وبعد ذلك ظهرت المذكرات بعنوان: (اثنتان و ثلاثون سنة في الإسلام) في عام ١٨٨٤م، وقد أجري التعديل على العنوان -لاحقا- لأن (ليون روش) لم يكتب -في واقع الأمر- ذكريات سنواته من عمره التي قضاها مسلمًا، ولقد كان القراء يتسابقون إلى قراءة كتابه عام ١٨٨٤وأعجبوا به كثيرًا[٢].

ولقد اعترف (ليون روش) في كتابه(اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام)، بخطة اختراقه للأمير عبد القادر الجزائري قائلا :(اعتنقت الإسلام زمنًا طويلاً لأدخل على الأمير عبد القادر الجزائري، وقد كنتُ جاسوسًا للقوات الفرنسية، على الرغم من المهمة الخطرة لكني نجحت فيها، ثم بحثتُ طويلاً عن دين المسلمين فوجدته قد ملأ حياتهم شجاعةً وشهامة ووداعة وجمالاً وكرمًا، فهو دين المحامد والفضائل، ولو وجد رجال يعلمون الناس حق التعليم، ويفسرونه تمام التفسير، لكان المسلمون أحسن الناس من بين الأديان وأرقاهم)[٣].

إن إجادة (ليون روش) للعربية اللغة التي تمتاز بالصعوبة على القادمين من بيئة تختلف عن بيئة أهلها يعطي إنطباعا بحدة ذكاء هذا الرجل، واتساع ثقافته، فضلا

(١) ينظر: مثلا، الجوسسة الفرنسية بالجزائر في العصر الحديث والمعاصر، ص٣٣.
(٢) ينظر: اثنتان وثلاثون في رحاب الإسلام، ص١٦.
(٣) نقلا عن: الخارجون عن النسق(ثلاثة عقود في رحاب الإسلام).

عن تمتعه بقدرة عالية على الصياغات الأدبية الخلاقة في لغته الأم (الفرنسية)، فقد لقي كتابه المذكور صدى واسعا بين نخبة المثقفين الفرنسيين، وعدّ واحدا من كتب الرحلات المهمة في التاريخ الأدبي المعاصر [1].

فقد الاحظ من خلال قراءتي لكتب الرحالة، يعنى أنّه أدب سفر، الغاية منه السفر إلى الأماكن البعيدة يريد من خلال ذلك فهم الجانب الآخر، ولم يقتصر على تجارب الإنسان بل يبغى التعرف على كلّ ما هو جديد ومثيرة بالنسبة إليه.

وقد نستنتج ما قد توصلت إليه من خلال اطلاعي الموجز على كتب الرحالة، فقد تميزت هذه الكتب: بأنه الرّحالة لديهم الرغبة الشديدة النزعة والقوية في الكثير المجالات منها المجال الديني أو المجال الأدبي أو المجال الجغرافي أو المجال التاريخي والتي من خلاله تصور والوصف الكامل والدقيق للمدينة الذي يذهب إليها، فقد تكون نظرتهم تختلف ليس كباقي السواح، فقد تكون لهم نظرة فاحصة ومُدققة في كل ما يراه أو يشاهده.

(١) اثنتان وثلاثون عاما في رحاب الإسلام، ص ٢٧.

المبحث الثاني: صورة مكّة في كتاب(اثنتان و ثلاثون سنة في رحاب الإسلام) لليون روش.

أ- وصف الكتاب:

صدر كتاب ليون روش(اثنتان و ثلاثون سنة في رحاب الإسلام) بطبعة واحدة فقط، وهي مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ويحتوي الكتاب على ما مجموعه ٢٠٨ صفحة من القطع المتوسط. وقد طبع الكتاب طبعته الأولى عن دار (جداول) في بيروت في كانون الأول من سنة ٢٠١١م، وهي الطبعة التي اعتمدناها في دراستنا هذه، لأننا لم نهتد إلى طبعة أخرى سواها.

ومن خلال اطلاعي على المصـــادر لليون روش، فأنّه الفصـــول الخمســـة لم تكن موجودة، وإنما مذكراتهُ تبدأ من الفصــل الســادس، وأن هذا الكتاب متناول بين يدي القراء.

وقد قسم الكتاب على أربعة أجزاء أسماها المترجم (كتب) وهي كالآتي:

الكتاب الأول:(القيروان ومصر)، يحتوي على الفصل السادس والفصل السابع.

الكتاب الثاني:(المدينة)، ويحتوي على الفصل الثامن والفصل التاسع والفصل العاشر والفصل الحادي عشر.

الكتاب الثالث:(مكَّة)، ويحتوي على الفصل الثاني عشر، والفصل الثالث عشر والفصل الرابع عشر والفصل الخامس عشر والفصل السادس عشر والفصل السابع عشر والفصل الثامن عشر والفصل التاسع عشر والفصل العشرون، والفصل الحادي والعشرون.

الكتاب الرابع:(من جّدة إلى الإسكندرية)، ويحتوي على الفصل الثاني والعشرون.

وقد نقله إلى العربية الأستاذ المترجم (محمد خير محمود البقاعي)، وقدّم له وعلّق على حواشيه، وممّا ذكره في بداية الكتاب قوله: أننا اقتطعنا من المذكرات ما له علاقة

بالحجاز وبدأنا بالترجمة من الفصل الحادي عشر من الكتاب الأول من صفحة (١٤٥)، الذي عنونه روش "القيروان ومصر" وانتهينا إلى عنوان" من جدة إلى الإسكندرية" وتنتهي بالصفحة(١٥٧).

ويذكر المترجم أنه لم يطلق (ليون روش) لم يطلق على كتاب اسم(رحلة)، أنما قال: إنه سيسميه مذكرات، وقد عدل عن ذلك و سماه(اثنتان و ثلاثون سنة في الإسلام)[١].

وإن كتابه الأصلي في مجلدين ويقع كل منهما في أكثر من٥٠٠ صفحة، وموضوع المجلد الأول هو أوضاع الجزائر وحياة الأمير عبد القادر.

وأما الثاني فمخصص لمهمته في الحجاز، ولحياة المارشال (بوجو) أشهر جنرالات الحرب الفرنسيّة على الجزائر، و تبدأ الرحلة منذ خروجه من الجزائر باتجاه تونس ثم إلى مصر عبر مالطا، ثم يذكر بصورة مفصلة عن كيفية الترجمة، وفي الفصل الأول من الكتاب الأول من المجلد الثاني يتحدث روش عن وصوله إلى تونس قادمًا من الجزائر، وعن لقائه بقنصل فرنسا العام هناك السيد (دو لوغو) وعن ارتدائه الملابس الإسلامية، وعن الأسواق و المساجد في تونس العاصمة[٢].

وقد تكلم في الفصل الثاني عن وصوله إلى مالطا وعن لقائه بقنصل فرنسا فيها السيد (دو فابرغيت)، وكذلك تحدث في الفصل الثالث عن مصر والقاهرة، وعن الموظفين الأوروبيين في خدمة نائب الملك.

ثم في الفصل الرابع أورد نص رسالته الثانية لصديقه الكابتن (فيرجيه)متناولا زيارته للمدارس التي أسسها نائب الملك، ويورد بعض الاعتبارات العامة عن حكومة النائب، وأوضاع الفلاحين.

---

(١) اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٨.
(٢)ينظر: المصدر نفسه، ص١٩-٢٠.

وفي الفصل الخامس يقول روش: إنه عاد إلى ارتداء الملابس الإسلامية، وقد تحدث عن الشيخ التونسي، وعن مجلس الجامع الأزهر وعن الفتوى، وأما الفصل السادس فهو الفصل الذي بدأت فيه الترجمة من ص٣٣ وما بعدها[١].

أن هناك مبيّنا السبب بالقول:(ليتسنى لي تقديم كتب التوصية التي زودني بها الأمراء الأحباش أصهار الشريف الأكبر والسيد (فيرنيل) وللاتصال بالعلماء الذين كان عليهم المصادقة من جديد على الفتوى التي صدرت من القيروان، ووافق عليها الأزهر في القاهرة، لذا وجب علي أن أعجل بالانطلاق)[٢].

وهذا ما يدعو إلى القول إن جون روش لم يكن قاصدا مكّة للحج أو للاستكشاف كما هو حال (وافل) الذي أفردنا له الفصل الأول، وإنما كان قادمًا بمهمة رسمية لم يحدد أبعادها في الرحلة القصد(لم يكن ينوي الذّهاب لمكّة)، إنما الأمر الذي سينعكس على طبيعة هذه الرحلة وعلى طبيعة المكان الذي سيصوره لنا لاحقًا.

ولتحقيق هذه الرحلة على وجه السرعة المطلوبة فقد كانوا(هو ورفاقه) مخيّرين بالذهاب إلى السويس أو إلى القصير للإبحار من هناك إلى جدّة، ويعلن أنه لم يكن يهوى الذهاب إلى المدينة المنورة لكن شريكه في الرحلة كان يصرّ على الذهاب إلى المدينة، ملمحا إلى نفوره من ركوب السفن الرديئة التي تعبر البحر الأحمر[٣].

فقد نستنتج أنه لم يكن له الرغبة أو الهدف قصد مكّة المكّرمة أو الحج بيت الله الحرام إنما كان الهدف الحقيقي الحصول على الموافقة الشرعية من قبل السلطات الحكومية.

هذا غرضي من الذهاب لا أكثر ولا أقل، لذلك ألح في القول:(إنني لم أعرض عن ذكر التفاصيل الكثيرة المتعلقة بالمجالس، والعلماء، والمقدمين والفتاوى، وعندما

(١) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص ٣٣ وما بعدها.
(٢)المصدر نفسه، ص٤٥.
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٤١.

كتبت هذا الكتاب الذي أنشره، لم يشغلني كسب لنجاح أدبي لا أملك صلب التطلّع إليه، بل شغلتني أهمية المعلومات التي سيقدمها الكتاب إلى أبناء بلدي، سواء في الحاضر، أو في المستقبل))[١].

ب- دوافـــع الرحلـــــة:

من المعروف أن هناك تأثيرا قويا للعلاقات المتضادة والمتصالحة بين الشرق والغرب، وأن فكرة تصّور الشرق المسلم على أنّه مكمن خطر قادم، هي فكرة لازمت هذه العلاقات منذ أن بدأت طلائع المسلمين تصل حدود أوربا، أمّا الصراع الاقتصادي السياسي بين أوروبا والشرق، فقد كان التنافس لكسب ودّ القوة الشرقية الإسلامية الصاعدة هو الأسلوب الذي تبعه الأوربيون في علاقاتهم دوما باستخدام أسلوبي الترغيب والترهيب[٢].

وكانت أوربا بحاجة دوما إلى مثقف يعيد رسم صورة الإسلام والمسلمين لكسب هذا الصراع الحضاري، وإن هذه الصورة هي:(صورة رسمتها الطبقة المتعلمة، وهي طبقة لا تشكّل إلا شريحة عن المسيحيّة الغربيّة، أما ما تبقى من هذه الصورة؛ فهو استنتاج مقحم إلى حدّ ما)[٣].

وقد مرّ بنا أن (ليون روش) كان قد عمل جاسوسا يخدم مصالح بلاده فرنسا، وأنّ التحاقه بالأمير عبد القادر كان بهدف التعرّف على قوة المسلمين الجزائريين لمحاولة كسب ودّهم وولائهم لفرنسا، وإقناعهم بأن مقاومة الاحتلال أشبه بالحكم القرآني المتعلق بالنهي عن إلقاء النفس إلى التهلكة، وقد أبان عن ذلك في رسائله

(١)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص٤٥.
(٢) ينظر: تجارب استغرابيّة (الغرب في مرآة الرحّالة العرب و المسلمين، مجموعة مؤلفين، تحرير و إعداد: محمود حيدر، المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، النجف- العراق، ط١،٢٠١٩، ص٢١٨.
(٣) الشرق الخيالي ورؤيا الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، تييري هنتش، ترجمة: د. مي عبد الكريم محمود، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص ٦٧.

للضباط الفرنسيين، وكان فحوى إحدى هذه الرسائل:(إنه ما التحق بالأمير إلا خدمة لبلاده، وإنه سيفارقه عندما يستأنف الحرب ضد فرنسا) [١].

وكان (روش) يقدم تقاريره الاستخباريّة المفصّلة للجنرال (بيجو) مستغلا ثقة المسلمين الجزائريين الذين عاملوه على أنه مسلم، الأمر الذي مكّن الجنرال الفرنسي من إعداد خطة محكمة لعملياته القادمة ضد جيش الأمير عبد القادر الجزائري القبلي[٢].

وكان من الأهداف المهمة لرحلة روش –كما ورد في كتابه- لغرض الحصول على موافقة شرعية بعد أن أقنعت سلطات الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٨١م مشايخ الصوفية بالجزائر بإصدار فتوى شرعية تقضي بجواز بقاء مسلمي الجزائر تحت الاحتلال وعسفه، والكف عن جهاد المستعمرين مقابل السماح لهم بإقامة طقوسهم الدينية، وكان (ليون روش) الضابط المكلف للدوران في تعميم هذه الفتوى بين مصر والشام والحجاز[٣]

وعند العودة إلى كتاب (روش) نجد أن الرحلة جهزت بطلب من أسرة الجنرال الفرنسي (بيجو)، لأنهما صديقان والحديث عن ذكريات (روش) ستجر إلى الحديث عن صديقه (بيجو)[٤]، غير إننا نجد أن المترجم (البقاعي) يصرّح بصعوبة الحكم بصحة وقوع هذه الرحلة بالأصل استنادا إلى أن (روش) عندما يأتي بأوصاف مكة المكرمة التي ادعى أنه يسجلها في كراس خاص بشكل يومي، بينما هو يقتبس هذه الأوصاف بحذافيرها من كتاب الرحالة السويسري (جون لويس بوركهارت، ت ١٨١٧م)، لكن هذهِ الأوصاف ينقلهُ إلينا من خلال ترجمته[٥].

لكن هذا الرأي الذي ينقله (البقاعي) من مستشرق فرنسي يبقى مجرد رأي لا يدعمه دليل سوى التشابه بين الوصفين، فالرحلة قد حدثت، وما يهمّنا منها تفاصيلها

(١) مهمة ليون روش في فرنسا، ص ٦٢.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٦٣.
(٣) مهمة ليون روش في فرنسا، ص ٣٢ وما بعدها.
(٤) اثنتان وثلاثون عاما في رحاب الإسلام، ص ٩.
(٥) ينظر: المصدر نفسه، ص١٠ وما بعدها.

الخاصة بصورة مكة كما مثبتة في الكتاب، والمؤلف (روش) يصرح بقوله:(إذن، لقد التزمت التزاما حادا بالذهاب إلى مكة)[١]، وهو يدلي باعترافه بهذه المذكرات بأنّه على كامل الاستعداد لتحمل عواقب هذه الرحلة إلى مكة مصورا دوافعه لها على أنها تحدٍّ شخصي، وذاهبا إلى أن مهمّته أصبحت تتمثل بـ(وسيلة للقيام برحلة ذات فائدة استثنائية، وإنجاز لمهمة في غاية الأهميّة، وليس مجرد وسيلة أتخلص بها من الحياة التي كانت تبدو لي حتى عهد قريب عبثا لا يحتمل)[٢].

(ويخبر (روش) قرّاءه بألّا يتوقعوا أن تمنحهم قصة رحلته إلى مكّة المتعة والفائدة اللتين قد يجدونها في قصة رحّالة تحدوه مجردُ رغبة في مشاهدة بلد جديد فقط، ودراسة عادات سكانه وتقاليدهم[٣].

ج_ صورة مكَّة في كتاب (ليون روش):

١ـمقدمـــــة الرحلـــة.

يورد الرحالة المستشرق (ليون روش) في مقدمة رحلته أنه كان شديد الحرص على الوصول إلى مكَّة قبل شعائر الحج بوقتٍ كافٍ، وقد يذكر أنّه أثناء رحلته، كان معي رفيقي في الطريق شيخ تونسي وكان قد انضم إلى قافلة أولاد بن علي، وتعدّ من كبار القبائل التي كانت تسكن الساحل، ويذكر بدلاً من انتظار قافلة الحج المصري الكبيرة التي تغادر القاهرة رسميًا في السابع والعشرين من شهر شوال من كل عام، ولا نصل مكّة إلا قبل يومين من بدء شعائر الحج.

وبعد ذلك توجهنا إلى المدينة، قاطعين جزءًا من الطريق سيرًا على الأقدام، ويصور لنا حال قدميه، فيقول أن حذائي خفيف جدًا وهي من نوع الخف، وكانت تسيل الدماء من قدمي عندما يكون الطريق حصبًا، وقد تكرر ذلك مرارًا[٤].

---

(١)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص٣٣.
(٢)المصدر نفسه، ص ٣٥.
(٣)المصدر نفسه، ص٤٥.
(٤)ينظر: المصدر نفسه، ص٥٣.

(ولما كان الرحّالة سائحًا غير اعتياديٍ يمر بالأشياء والمشاهد مرور الكرام، إذ لا بدّ له من أن يحسّب الأشياء من حوله، فهو عندما ينظر إليها فليست نظرته كنظرة أي شخص عادي يتجول، بل له وجه نظر مختلفة تمامًا، وله شعوره الراصد وقلمه المدون لكل ما يراهُ أو يسمعهُ أو يشاهدهُ، فضلا عن ضرورة وجود عدسة عقلية خازنة للصور والأحداث من حوله يستثمرها عند التدوين)، أني أوافق هذه الرأي وأجد فيه الصواب لنظرة الرّحالة فهي نظرة شاملة جامعة لكل من الرّحالة المستشرقين وغير المستشرقين [١].

لذا نجد (ليون روش) في كتابه المذكور ينتمي إلى هذا النوع من الرحالة من أول سطر في كتابه حتى آخر سطر، فيقول مثلا:(بعد مغادرة المدينة النبوية في يوم الثلاثاء في الرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٨٤١م، وقد دخلنا إلى مكَّة من الباب المصري، وقد التحقنا مقوّمنا بقافلة من مئة جمل تقريبًا وكانت متوجّهة إلى جدة وقد قضينا أربعة أيام ثم وصلنا إلى طريق ينبع المدينة، فيصورها مدينة صفراء جميلة حقًا بصخورها، ومبنية على منحدر هضبة فوق وادٍ خصيب، يمتاز برياضه الغناء وبوفرة أشجار النخيل فيها)[٢].

وكانت كل تفاصيل الأمكنة في أرض الحجاز هي الشغل الشاغل لهذا الرحالة الذي لم يغفل الأحداث الجسام التي كانت تدور في هذه الأمكنة عند زيارته لها، ومنها -على سبيل المثال- هيمنة حركة محمد بن عبد الوهاب على المشهد السياسي والاجتماعي والديني في الحجاز، إذ كان الانتشار الهائل لهذه الدعوة مهددا ومزعزعًا لسيطرة الأتراك في جنوب الإمبراطورية العثمانية التي عجزت عن إيجاد الحلول لهذه الحركة[٣]

(١)ينظر: شعريّة الرحّلة الأدبيّة(في السرد العراقي المعاصر)، د. زينب ساطع عباس، دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد، ط١، لسنة١٤٣٤هـ/ ٢٠٢٠م، ص١٩٢.
(٢)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص٨٥.
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٦٩-٧٠.

٢ -استراتيجية وصف مكة:

أولا - مكة من الداخـــل:

إن أدب الرحلات -كما مر بنا-هو أدب يقوم على السفر، وفي هذا الأدب طغيان لتوظيف ضمير المتكلم في سرد الحديث عن تجارب القائم بالرحلة، ومع هذا فلا يدخل أدب الرحلة في الفن القصصي؛ ولعلّ السبب يعود إلى أن جميع كتاب الرحلات (يجدون أنفسهم مضطرين للتغلّب على دورين مختلفين بعمق ومتصارعين، الأول هو دور ناقل الأحداث، حيث يسعون إلى نقل المعلومات التي تمّ اكتسابها خلال الرحلة بدقة، ودور القاص، حيث يسعون للمحافظة على اهتمام القارئ بالمعلومات وتقديمها بطريقة ممتعة أو على الأقل سهلة الفهم)، من خلال هذا الكلام نستنتج أن أدب الرّحلات ما هو إلا نوع من أنواع النثر، فقد تكون الفكرة لدى الرحلة وثم يعارضها للقراء على هيئة نوع من أنواع الفن القصصي الإبداعي، فقد يدخل في هذا المفهوم نوع من الخيال لكي تشكل لدى القارئ صورة كاملة عما يعرضهُ[١].

ولذلك، فقد نجد درجة من البعد الروائي في رحلة (ليون روش) تكاد تكون أوضح مما هي عند صاحبه (وافل) على الرغم مما اتهم به من اختلاق الرحلة، وعدم قيامه بها، وكما أوضحنا ذلك في الصفحات السابقة، فقد نرى أن وافل تمكن من الوصول إلى مبتغاهُ من خلال الظهور بشخص آخر(متخفيًا) لكي يصل إلى ما يصبو إليه.

ولما كان أدب الرحلة شكلا ثقافيا منغمسا في المواقف والأخيلة الإمبريالية كما يقول كارل طومسون[٢]، سنجد أن الاستراتيجية التي يعتمدها (ليون روش) تقوم على الأيديولوجيا في وصف المكان، إذ إن غاية الحج هي الكعبة عند المسلمين، وهي المكان الأقدس عندهم، لكن (روش) بعد أن يحدد للقارئ شكل الكعبة الواقعة على

(١) أدب الرحلات، كارل طومسون، ترجمة محمد الجندي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٩م، ص ٣٨.
(٢) ينظر: أدب الرحلات، كارل طومسون، ص١٥٢.

الأجنحة القريبة منها ذوات الأشكال المختلفة في منتصف ساحة كبيرة تأخذ شكل متوازي الأضلاع، وقد يبلغ طولها ما يقارب ١٨٠مترًا، و عرضه ١٣٠مترًا.

ويمتد رتل من ثلاثة أو أربعة صفوف من الأعمدة حول هذه الساحة، وهي أعمدة تدعم أقواسًا قوطيّة تعلوها قبب صغيرة الحجم، وقد كانت مطلية بالجص المُحفر من الداخل و بالكلس من الخارج(١).

يلجأ بعد ذلك إلى خطاب مجازي مقنع فهي (المنزل المربع) كما رآها، وقد يقول في الفصل الثالث عشر أنه حان الوقت أن أطلع على نبذة موجزة عن أصل الحج إلى مكّة المكّرمة، وبعد ذلك يستطرد في النص، وقد يقول أطلقه عرب الجاهلية على بعض الأوابد التي كانوا يطوفون حولها مبتهلين إلى آلهتهم، أن يعيد بناء الكعبة التي بناها آدم (عليه السلام)، في الأصل وهدمها الطوفان، وقد امتثل إبراهيم(عليه السلام)لأمر ربه (وهو الذبح ابنه إسماعيل، فقد قال له ابنهُ ستجدني إن شاء الله من الصابرين)، وقد يذكر أنّه كان يسكن مع زوجته العربيّة هاجر في مكة(٢).

وأنّ الناس يلجون هذا الحرم عبر (١٩) بابا موزعة على نحو غير منتظم. بينما ازدانت أسواره الخارجية التي تحاذيها صفوف الأعمدة بكتابات بديعة نقشت بحروف مذهبة ونافرة(٣).

أما الحجر الأسود فيصوره (روش) بأنه شكل بيضويًا متخذا غيرمتناسق، مكون من عدة قطع من صنف واحد تفككت بفعل النار، وأعيد تجميعها في قالب اسمنتي محاط بطوق من الفضة يجعل هذا الحجر يبدو مجوفا، وهو الذي يفترض أنه كان بارزا في البدء؛ بسبب تمسح المؤمنين له بالأيدي أو بالشفاه منذ قرون... ثم

(١)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص٩٥-٩٦.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص٩٢- ٩٣
(٣)ينظر: المصدر نفسه، ص٩٦.

يضيف يوجد حجر آخر في الزاوية الجنوبية الغربية على الحجاج أن يلمسوه دون أن يلثموه[١].

ويضيف ساخرا بخصوص بئر زمزم فيقول:(يُشربُ هذا الماء علاجًا لجميع العلل، ويمكن للمرء الحصول عليه لنفسه ولذويه عند المرض، وتباع القوارير بثمن باهظ، كما تباع أكفان غمست بماء زمزم يقال إنها تقي أولئك الذين يكفنون بها من نار جهنم)، قد يفهم القارئ من خلال كلام ليون روش أنه بئر ماء عادي، فكيف يشفى العليل أو المريض؟، فقد كانوا الناس يشربون الماء من هذا البئر لغرض التبرك منه[٢].

ويقول عن الطَّواف الثاني إنه: مُشابهٌ للأوَّل، ولكنَّ الأدعية تختلف ما بين الحجر الأسود والرّكن الجنوبي(اليماني)، ولكنّها ابتداءً من الحجر الأسود هي نفسها في الدورات السَّبع، و هناك قاعدة عامَّة، فإنَّ الإسراع يجب أن يكون في الأخيرة منها، لكن نظرًا لحالتي الصحيَّة، فإنّي قد اكتفيتُ بخطواتي البطيئة[٣].

وفي موضع آخر من كتابه ينقل لنا قولا غريبا يخص طقوس الحج إذ أورد أنهم ضمن مشهد الطواف كانوا يسمعون ضحكات وصيحات مئات من الأشخاص، من الرجال والنساء والأطفال الذين تجمعوا تحت الأعمدة منصرفين إلى اللعب، وفعل المنكرات التي تثير الاشمئزاز، فقد يفهم كلام المؤلف الكتاب (ليون روش)من خلال طرحهُ أن الصورة التي يُرسمها للقراء، أن المسلمين كانوا ذاهبون لغرض الاستمتاع و ليس القصد التقرب من الله، و إن المفهوم منه كلامهُ أن الصورة التي يريد أن يوصلها عما يكنه من الحقد و الكراهية و الأنانية في قلبه لدى المسلمين، فقد كانت تظهر من خلال كتابته أنه يريد أن يُوصل لدى القارئ أن زائرو مكّة، هي الصورة المليئة بالحقد والمغرضة كانت واضحة من خلال كتابهُ لهذا النص[٤].

---

(١)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص ٩٧.
(٢)المصدر نفسه، ص١٠٠.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص١٠٤.
(٤) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص١٠٨.

كما ينقل قيام بعض طلبة العلوم الدينية الجالسين قرب باب السلام بكتابة الحجب والأدعية مقابل أجور تزداد حسب طول الأدعية المكتوبة وحسب قصرها[١].

ولا يفوته أن يلتقط صورة كثرة المتسولين أثناء تأدية الطقوس، ولا سيما الهنود منهم الذين يصفهم بأنهم(إحدى الآفات المرافقة للحج، فهم الدراويش، القذرون والمتعجرفون، ويجد الحجاج الميسورون أنفسهم مجبرين على إعطائهم صدقة ليتجنبوا المواقف المشينة التي يقدمون عليها لمن يعارض طلباتهم الوقحة)، وقد نرى أن ليون روش ينقل إلينا صورة أخرى بشعة و مُسيئة لمكّة وللمسلمين العرب من خلال التطرق للمتسولين في أثناء أداء الفرائض الدينية، وهل توجد علاقة بين المتسولين و الدراويش و مكّة(الذي تّعدُ هي قبلة المسلمين و قلب العالم الإسلامي)، فقد نفهم من خلال حديثهُ هذا عن مكّة أنه الصورة الذي يريد أن يوصلها لنا، فقد تكون صورة مفهومة مليئة بالضغائن و الحقد أتجاه مكّة و المسلمين[٢].

ولعل هذه النتف الموجزة من رحلة (روش) تعطي القارئ تصورا عن طبيعة الذهنية التي أنتجت مثل هذا الخطاب القائم على استراتيجية تجريد المجتمعات من إنسانيتها انطلاقا من هذه الصور التي تصورها على أنها مجتمعات غريبة وغير مفهومة، ولا يمكن أن يتقبلها الأوربي المتحضر الداخل على أبواب القرن العشرين.

ثانيا- مكـــة من الخارج:

يلتفت روش إلى مظاهر الحج بتفاصيله المتنوعة مقدرا عدد الحجاج المجتمعين في عرفات بستين ألفًا، فالقوافل اليمنيّة وحدها تستخدم أكثر من عشرين ألف جمل. ولما كان الحج حدثًا أمر به الله بنفسه، فالمسلمون يكلّفون أنفسهم تحمّل مشقات

(١) ينظر: اثنتان و ثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٠٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

الرحلات الطويلة برًا، وشظفها بوصفها نوعًا من العمل الصالح، ولا يزيد عدد القوافل التي تصل إلى مكّة عن ثلاثة: تلك القادمة من الشام، وتلك القادمة من مصر، وتلك القادمة من اليمن، وكانوا جميعًا يلتزمون العفة طيلة مدة الحج، لا تشغلهم إلا الصلاة وقراءة أحاديث النبي، فقد نرى ليون روش يصور لنا صورة بشعة تارة و تارة أخرى يمدحهم، فقد لا يبين للقارئ أنه نظرتهُ عدائية أتجاه المسلمين(١).

أما اليوم فلا يكاد عدد الحجاج الذين يزورون بيت الله الحرام يتجاوز أربعين أو خمسين ألف حاج، وأن عدد الحجاج ضئيل، وخصوصًا في القافلة الأخيرة، ويسلك معظم الحجاج الطريق البحري، و حين تنتهي المراسيم ينصرفون جميعًا تقريبًا إلى التجارة، وتحل في قلوبهم روح المضاربة محلّ التقوى، فقد نرى ليون روش يصور لنا هذهِ الدقيقة في الوصف و يقول أن عدد الحجاج ضيئل، و نفهم من ذلك أنه كان مادحًا(٢).

وقد سجلنا مشاهدات (روش) لظواهر الحياة الاجتماعية لكي يتكامل المشهد الذي يرسمه، ولتتكامل الصورة التي يحدد أبعادها في رحلته لمكة، وهذه الأبعاد المنتقاة تعكس –دون شك- وجهة نظر هذا الرحالة الفرنسي الذي يرسم صورة تحاول أن تقارن بين الذات الثقافية التي ينتمي لها والذات الثقافية التي يقوم بتجسيد صورتها لأغراض ودوافع مقصودة وملائمة لطبيعة الصورة المرسومة، وكالآتي:

أولاً- صورة المناخ:

لما كانت الغاية من الرحلة ليست وصف الآخر بعينه، والوقوف على معالم حياته، بل الغاية تكمن في قراءة الآخر ضمن مرآة الأنا(٣)، لذلك يقع المناخ ضمن

(١) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٦٣-١٦٤.
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص١٤١-١٤٢.
(٣) ينظر، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، بلال سالم الهروط، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، إشراف د. فايز القيسي سنة ٢٠٠٨، ص١٧.

وجه المقارنة بين ما اعتادت عليه الذات وألفته في بيئتها، وبين ما وجدته في بيئة الآخر المغايرة والمختلفة، لا سيما وإن روش ينتمي إلى فرنسا المعروفة ببرودة جوها، ووفرة أمطارها، وكثرة غاباتها، وخصوبة تربتها، وسمائها الممطرة.

وقد تحدث (ليون روش) عن مناخ مكة وطقسها بشكل مُبسط وموجز، وما يتركه هذا المناخ القاسي من أثر على مشاهداته، فيقول –مثلا- أن شوارع مكّة كانت غير مرصوفة، مما يجعلها مزعجة بغبارها في الطقس الجاف، وبوحلها في الطقس الماطر، ولا يلمح الماشي في دروبها الموحلة أي أثر لتلك العمارة العربية الأنيقة التي تثير إعجابنا في القاهرة، وإسبانيا، وقد نستنتج أن مكّة مكانها مداري صحراوي وأرضها كذلك وأن طقسها حار أو شبه معتدل، فقد يكون جوها متقلب بين الحرارة أو الاعتدال(١).

ويذكر في موضع آخر عن طبيعة الطقس مكَّة، فقد كانت الشمس قد غربت عندما وصلنا، كان الليل باردًا وحالكًا.

وكان مترددًا في وصف المشهد الذي تصوّره تلك المخيمات المتنوعة المُنارة بضوء النيران المشتعلة أمام خيام علية القوم والمسلمين الميسورين، وقد نجد يصور هذا المشهد كمشهد قصصي وقد يطيل في سرد الأحداث.

ولكونه منهكًا من الرحلة نجده يصف برد مكة بقوله:(ولا أعتقد أنني عانيت من البرد يومًا بهذهِ الشدة، لحسن الحظ سمح لي المفتي بأن أتلفّع في حائك طويل من الصوف كانت رفيقتنا الفاضلة، قد احتاطت بجلبه من أجل زوجها ومن أجلي)، وقد نجد ليون روش أنّه واصف وصف دقيق لجو مكّة و طقسها من ناحية البرودة(٢).

وقد ذكر أغلب الرّحالة أن طَّقس مكَّة حارٌ، وليس ذلك بسبب امتدادها الجغرافي فقط، وإنَّما بشكل خاص لوضعها الطُّبوغرافي بين الجبال، وانعكاس ذلك في جعل

(١) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١٢١.
(٢)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص١٥٩.

المدينة فُرنًا في الصيف خصوصا، أما في الشتاء فيقول (روش) أن شدة الحر تخف كثيرًا، وفي ليل مكة كان يعاني من شدة البرد الجاف الذي لا تحلّ مشكلته كثرة الأغطية، فقد نستنتج أن مناخ مكّة حار و أني أختلف على ما يقوله الرّحالة المستشرق ليون روش، فأنّه الذي يذهب إلى مكّة لن يجد هذه البرود الذي يتكلم عنها الرّحالة، فقد نرى أن مناخها يكون أما حار أو شبه معتدل.

ويلخص (ليون روش) رأيه بجو مكة من خلال قوله:(يصاب العديد من الحجاج بأمراض مميتة في الغالب، خلال مدة ارتدائهم ثياب الإحرام، إما بسبب البرد، وإما بسبب الحر الشديد)، أن جو مكّة عكس عما ذكرهُ الرّحالة(ليون روش)، فقد نذكر خير مثال أن الزائر مكّة، عندما يعود منها يصاب بنزله البرد أو ما تسمى بالأنفلونزا، و ليس الأمراض الذي يذكرها ليون روش، وأن مرضهم ليس بسبب الملابس الذي يرتدونها و إنما بطبيعة جوهم[١].

ويصرّ (روش) على أن ينهي عباراته نهايات غريبة، فالعبارة السابقة – على سبيل المثال- ينهيها بقوله:(كان الحج قبل الإسلام يقام في الخريف، وكان الإحرام خلال هذا الفصل يتسبب بأضرار أقل)، و بعد ذلك أقر أن النبي محمد(صلى الله عليه و اله وسلم) السنة القمرية وحدد الحج في شهر ذي الحجة و ما دامت السنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية أحد عشر يومًا، فقد أصبح الحج يأتي خلال ثلاثة و ثلاثين عامًا على التوالي في جميع أوقات السنة، وقد نجد أن ليون روش يقول في نصه، أن الحج في فصل الخريف فقط، أنا اختلف معهُ أن الحج يقام في شهر ذي الحجة الحرام في يوم العاشر من الشهر [٢]

ثانيا -صورة الأسواق:

أولّ ما يسجله (روش) أثناء حركته الدائبة طمع المكّيين الذين يشرفون على خدمة المسجد، ناقلا الواقعة التي حدثه بها رفيقه عن أساليب الابتزاز التي يمارسها أهل مكّة مع الحجاج، إذ ينقل قول(المفتي هل ترى كيف صُنعت القُلل التي يحمل فيها

(١) اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص٨٨.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

السقاؤون ماء زمزم؟ إنها مُدبَّبة من قاعدتها كي لا تبقى منتصبة؟ وهي وضعية يمكن أن يستفيد منها الحجاج ليشربوا عندما يضعها السقاؤون على الأرض.

وعلى هذا النحو، لا تصـــل أي قطرة ماء إلى حلوق الحجيج الظمأى إلا لقاء أجر يعطى إلى حامل القلّة)[١].

ويضيف عن ملاحظاته لأسواق مكة-أيضا- :(من المؤكد أن معظم سكان مكّة ليس لهم موارد رزق أخرى عدا اســـتغلال الحجاج)، فقد نرى أن المكيون كانوا يستغلون الحجاج على الرغم من عددهم القليل، فقد يصوروا لنا أن الحاج فقيرًا مهما كان وضعه الاجتماعية إلا و كان يحمل بعض الهدايا معه لأهله [٢].

ولا يتورع (روش) عن إطلاق أحكام انفعاليّة على الحجاج الذين يأتي أغلبهم إلى مكَّة مدفوعين بشعور الغرور أو بقصد التجارة ليس إلا! مبينا أنّه قد حصل على هذهِ المعلومات من ألسنة المؤمنين الذين مسهم الضرُّ من فتور الشعور الديني لدى إخوتهم في الدين، وقد نفهم من خلال هذا النص أن لم يكن دقيق في كل يصـــفه لنا من أحداث، فقد نجد أنّه كلامه عن الحجاج و فيه روح من العدائية اتجاههم.

وفي تجواله في أسواق مكة يسجل وجود محلات أنيقة تبيع نسخا جميلة من المصاحف والساعات الإنجليزية إلى جانب المطاعم التي تقدم لحم الضأن المشوي، وأصناف القشدة مضيفا إلى مشاهداته ما يقوله مستغربا:(من كان يتصور أن بعضها يبيع مشروبات مسكرة من بينها (البوظة) نوع من أنواع المشروبات الكحوليّة)، أن كلامه عن الأسواق، فيها نوع مبالغة، و أنها لم تكن هكذا أسواق مكّة في ذلك الوقت، فقد كانت تفتقر إلى البساطة[٣].

---

(١)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص١١٥.
(٢)ينظر: المصدر نفسه، ص١١٥-١١٧.
(٣)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص ١٢٣.

أما في السوق الذي يسمى (سويقة) حيث تقيم أغلبية هندية مسلمة لا يتورع في الطعن بعقيدتها وبعدم تمسكها بالإسلام، فقد تجد ضالتك في هذا السوق من الرقيق والخدم من رجال ونساء جميلات

وفي السوق نفسه يسجل (روش) امتعاضه من رؤية نسوة حبشيات آية في الجمال والحسن معروضات للبيع لقاء (الف فرنك للواحدة) وهن يتحملن باستكانة لمسات المشترين ونظراتهم الوقحة، متمنيّا بعد أن أخذته الشفقة على استلاب إنسانيتهن أنه لو كان يملك المال لاشتراهن وأعتقهن، نجد أن ليون روش هنا قاسي في نصوصه وأنه يطعن وهو يتحدث عن النساء العربيات، فكيف لمستشرق فرنسي يتحدث بهذهِ النظرة الحدية في كلامه عنهن.

وينهي (روش) حديثه المخصص لأسواق مكة بعبارة توجز لنا رأيه بطقس الحج عند المسلمين الذي يختصره فيما رآه بحركة السوق في مكة، إذ يقول:(لم أقتنع كثيرا بإيمان الحجاج، واعتقد أن مكة تستهوي معظمهم لدوافع دينيّة محضة: كالمضاربات التجارية والمباهاة والفضول، إضافة إلى ذلك لا يحظى الحجاج جميعا في العالم الإسلامي بالتقدير الذي يفترض أن يرتبط بلقب الحجاج).

وقد نرى أن في أفكار ليون روش نظرة عنصرية وفيها روح عدائيه إتجاه الحجاج لما يذكره من خلال كلامه عنهم في اغلب نصوصهُ.

ولا يكتفي بذلك الرأي الذي لا ينم عن معرفة حقيقية بالإسلام وتعاليمه في هذه المسألة التي شدّ الرحال لكي يكشف عن أبعادها لقومه الفرنسيين، بل إنه يزيد الطين بلة بعد أن يقول:(إليكم استنادا إلى ذلك الرأي مثلٌ كثيرا ما سمعته يتردد على لسان مسلمين من بلدان مختلفة:

سؤال: من أكثر احتيالا من حاج؟

جواب: الحاج الذي أدى حجتين)[١]

فقد نفهم من خلال كلامه، أنه سـمع من أحدهم يقول الذي يؤدي الحجة أكثر احتيالا هو الحاج، لأنه يؤدي الحجتين، فقد نرى أنه كلامه يكون غير دقيق، مقبول، فقد يقول سمعت، فإن الكلام الذي يسمع يكون قد تأول ولا صحة في هذا الرأي.

وللقارئ أن يتخيل خطورة الأفكار المطلقة التي يجزم بها (روش) هنا، وهي أفكار غير منصفة تحاول أن تؤطر صورة الحاج المسلم أثناء تأديته لأي نشاط خارج إطار الطقس التعبدي، وهل خبر (روش) كل الحجيج ليطلق مثل هذا الحكم الجائر؟

أن مثل هذا الرأي نظرة غير منصفه في حق الحاج، فقد نرى أن ليون روش نظرة عنصرية محضة بحق الحاج.

ثالثًا-صورة المرأة:

على الرغم من إن (ليون روش) تطرق للمرأة بشكل بسيط وموجز خلال مشاهداته التي اطلعنا على جزء من دقتها التي التقطتها عين كعين الصقر لا تبقي شيئا من المشهد المنقول، فهو لم يتطرق للمرأة بشكل مفصل كحضورها في الأسواق، وكوجودها بين الحجيج مؤدية طقسا من طقوس الإسلام أسوة بأخيها الرجل، لكنه يسجل حضورها في المواخير في حارتين معروفتين من حارات مكّة، مسجلا وجود بعض البدويات من القبائل المجاورة كعاملات أجيرات في هذه المواخير التي لم يتطرق إلى وجودها الرحالة الآخرون[٢].

(١)اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص١٢٦.
(٢)ينظر: رحلات علي باي العباسي، ص٢١٣.

ويضيف (روش) في موضع أخر من كتابه أن الحج ليس بممنوع على النساء غير المتزوجات، ونجد كثيرًا منهن يرافقن القوافل الكبرى القادمة من القاهرة وسورية ويتباهين بحليّهن ولباسهنّ ببذخٍ عظيم(١)

فقد نرى أن ليون روش يتناقض في أفكاره من خلال كلامه عنها، أن الحج المفروض على كل عاقل بالغ ذكر كان أم أنثى.

وينقل أيضا قوله: كنا نجلس بالقرب من البئر وتحت أشجار نخيل بديعة، عندما فوجئنا بوجود جمع من النساء كنّ يحطن بنا وكلهن شابات حسناوات، جئن ينهلن الماء.

وكنّ سافرات الوجوه، ولم يفزعن من وجودنا على الأطلاق، وهنّ ينتسبن إلى قبيلة حرب التي يسكن فخذ صغير منها في منطقة (صفراء)، ولم أكن قد سمعت أحدًا –قط- يتكلم اللغة العربية بأسلوب سليم إلى هذا الحدّ، من العذوبة، وكنت قد استغرقت مطولاً في الحديث مع هؤلاء البدويات اللطيفات لولا أن المفتي الذي رأى في وجود الشابات مسًا بمقامه، فأشار إليَّ بالرحيل(٢)، ومن الواضح أن روش يحاول من خلال حديثه بهذه الطريقة التي قد تكون من وحي خياله أن يذكر قارئه الأوربي بصور نساء الشرق التي رسمها الرعيل الأول من المستشرقين الأوربيين الذين وضعوا النساء المشرقيات في إطار من الغواية والفتنة لغايات تتعلق بمخيلتهم عن النسوة المشرقيات.

فقد نجد أن كلام ليون روش عن النساء العرب، فقد يتكلم مُسي للمرأة العربية وهو يقول عنهن على الرغم هنه ذات حُسن و جمال، لو يأتي أحدهم ويشتريهن، و تارة يتحدث عن المرأة الهندية ويطعن فيها، فقد نجد نظرته الحدية اتجاه النساء العربيات على الرغم جمالهن إلا أنه لم يتطرق إلى صفات و أشكال النساء العرب، دون غير من المستشرقين الأوربيين الذين يضعون النساء موضع الجمال و الحب.

---

(١)ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام ، ص١٢٥.
(٢)ينظر:اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ص٨٦.

ومن خلال ذلك نفهم وبالاستناد إلى ما تقدم نستطيع أن نحدد ملامح الصورة التي رسمها (ليون روش) لمدينة مكة، وهي صورة تبخيسيّة تحيل على أسوأ ما بالواقع العيني المشاهد بهدف تقديم صورة مغرضة تضطلع بمهمة تشويه الحقائق، وإعادة التلاعب بالعقول، أما ملامح هذه الصورة فيمكن تحديدها بالآتي:

-لم يكن دافع الرحلة (عند ليون روش) دافعا ساميا، بقدر ما كان دافعا ذا طبيعة سياسية تحاول فرض وصاية المحتل الفرنسي الغازي، وتبليغ الأوامر المتماشية مع مصالحه.

- كانت الصورة التي رسمها (ليون روش) مجافية للحقيقة ومنقلبة عن الواقع، وهي مجرد محاولة لإشفاء رغبات دفينة يشوبها الكثير من الغموض والالتباس عند هذا الرحالة والمستشرق الذي تحامل على واقع مكة في تفاصيله التي رسمها بطريقة تلائم رغبائه وهواه، لذلك ارتدت هذه الصورة عن قرينتها السابقة مخفية بين طياتها ردة فعل إزاء الآخر / المسلم بهدف إزدرائه والحط من قيمته.

-من المؤكد أن هذا الرحالة المستشرق يحمل في ذهنه مجموعة من الصور السابقة والمخزونة في ذاكرته عن المسلم وعاداته، وقد كرّس موقفه هذا بما حمله كتابه، على العكس، فقد تشكلت نظرة عند الغرب إلى سحر الشرق باعتباره أرض الغيبيات و العادات الغريبة و الأفكار و الفلسفات، و كل هذا قد لا يروق للعقل الغربي.

الفصل الثالث

أنموذج الصورة المتحيّزة في كتاب (الطريق إلى مكة) لليوبولد فايس.

المبحث الأول: النشأ والتكوين المعرفي.

المبحث الثاني: صورة مكة في كتاب(الطريق إلى مكة) لليوبولد فايس.

أ –النشأ.

وُلد (ليوبولد فايس) لأبوين يهوديين بإحدى مقاطعات النمسا عام(١٩٠٠م) التي ضمت لألمانيا بعد ذلك[١].

وقد عاش حياتهُ في مدينة اسمها (ليبو أو لومبيرغ) في ألمانيا في الجزء الشرقي من النمسا، وقد أمضى معظم أيام طفولته هناك، ولاحقًا في فيينا عاصمة النمسا.

وكان والده قد ترك الأمر له، ليقرر ماذا سيفعل ذكر الصحافة، ولم يكن سعيدًا جدًا حين ترك الجامعة بعد سنتين ليصبح صحفيًا لكنه تقبل الموضوع بمضاضة[٢]. فالوالد كان يريد لولده أن يواظب على دراسة النصوص الدينية، وهكذا وجد نفسه وهو في سن الثالثة عشرة يقرأ العبرية ويتحدثها بإتقان، إذ درس التوراة في نصوصها الأصلية، وأصبح عالمًا بالتلمود وتفسيره، ثم انغمس في دراسة التفسير المعقّد للتوراة المسمى (ترجوم)، فدرسه، وكأنما يريد أن يهيء نفسه لمنصب ديني[٣].

وفي عام ١٩١٤م عندما اتخذت عائلة فايس (فيينا) محلا للإقامة أدخلت ولدها مرحلة التعليم الأساسي، وفي عام ١٩٢٠م دخل مرحلة الدراسة الجامعية[٤]، وفي تلك المرحلة من عمر (ليوبولد فايس) اشتعلت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، وبعد انتهاء الحرب، وعلى مدى عامين درس بلا نظام تاريخ الفن والفلسفة في (جامعة فيينا)[٥]

(١)ينظر: الطريق إلى مكّة ، ليو بولد فايس (محمد أسد)، تر: رفعت السيد علي، منشورات الجمل، بغداد –بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص٥٥٥.
(٢) ينظر: دروب المعرفة للترجمة، ترجمة (عماد شراب) محمد أسد، ليوبولد فايس (سابقًا) حلقة في اليوتيوب بتاريخ ٩/٩/ ٢٠١٩م.
(٣) ينظر: في الطريق إلى مَكَّة (ليوبولد فايس) ، ترتيب: الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، مركز المربي، ط١ ، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، ص٧.
(٤)ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص٢٧٧.
(٥)في الطريق إلى مَكَّة (ليو بولد فايس)، ص١٠.

ويصف (ليبولد) طريقة تربيته ووعيه بسلوك عائلته في مرحلة صباه فيقول:(لم يكن والداي مُلتزمين حقًا بالدين، بل كانا ينتميان إلى ذلك الجيل الذي يمارس الطقوس الدينية فقط تلبيةً لرغبة الأهل دون أن يحاول أحدهم أن يجهد نفسه في التفكير بتلك الممارسات والمعتقدات الدينية، بل كان أغلب ذلك الجيل يتصور أن هذه الممارسات الدينية هدفها الالتزام والحفاظ على التقاليد والأعراف الموروثة)[١].

لكن من خلال استقراء طفولة (ليوبولد) فإن جميع الدلالات تُشيرُ إلى إقامة عائلته في مدينة ليمبورغ، لا في مكان آخر، فالمعلومات الوثائقية تبين أن عائلته استقرت أيضًا في مدينة (كتسرنوفيتس)، إذ لم يتناول الرجل في سيرة حياته الذاتية وقت وصول عائلته بشكل دقيق إلى فيينا، بل اكتفى بوصف أحداث حياته في نهاية عام ١٩١٤م، ومنها سردهِ لمُغامراته الشبابية، وغيابه عن المدرسة، و تطوعه في الجيش النمساوي تحت اسم مُزور لكي لا يستطيع والدهُ العثور عليه وإعادته إلى فيينا حيث أقامت عائلته هناك لاحقا[٢].

وفي عام ١٩١٩م توفيت والدتهُ التي تركت لهُ خاتمًا بمثابة ثروة كبيرة دفعت(ليوبولد) للسفر دون إذن والدهِ، فبعث له أبوه يدعوه أن يرجع إلى (فيينا)بدلا من التسكع في الشوارع، فكان رد (ليوبولد): لستُ بالذي يتسكع في الطرقات، بل سوف أبلغ القمة[٣]، وقد بلغها فعلا، فقد(تعلم ليوبولد فايس التوراة وتفسير التوراة، منذ كان صغيرًا، وكان يفرق بين التوراة البابلي والتوراة، وقد درس التلمود وشرح التلمود العظيم الذي كانوا يقدسونه، كما درس العديد من اللغات و منها اللغة العربية واللغة الآرامية)[٤].

---

(١) نقلا عن كتاب: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية ١٩٠٠-١٩٢٧م، جونثر فندهاغر، ترجمة سلام عمر محمود، دار الملك عبد العزيز، ٢٠١٦م، ص٦٢.

(٢) ينظر: تأملات، حلقة عن إسلام ليوبولد فايس مسجلة على اليوتيوب، في ٢٠٢٠م، وينظر مقدمة كتابه في الطريق إلى مكة، ص٧.

(٣) ينظر: في الطريق إلى مَكَّة، ص ٩.

(٤)طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام ،حلقة يوتيوب ،ج١، https://youtu.be/_٢Ug٨ZC١AapVJO=si?٩_is٦N_٣z٠S_si.

ويصف أحد الدارسين معارفه التي تعلمها فيقول:(بدأ يتعلم العربية، لبضعة أشهر، ودرس أيضًا علوم التحليل النفسي التي تشكل في ذلك الوقت ثورة فكرية عظمى، وقد أحس فعلا أن تلك العلوم فتحت أبوابًا واسعة تتيح فهمًا أوسع للذات، وما أكثر الليالي التي قضاها في المقاهي ليستمع فيها إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسي المبكرين من أمثال:(الفريد أدلر وهرمان سيتكل))[١].

وهكذا يبدو أن طفولة (ليوبولد فايس)تأثرت بالخلفيات الدينية والسياسية والاجتماعية لعائلته ذات الديانة اليهودية التي تلقى على وفق تقاليدها دروسًا أساسية في جميع علوم الشريعة اليهودية إلى درجة مكّنته من تعلم العبرية في سن الثالثة عشرة[٢].

وكان الشاب (ليوبولد فايس)محبا للعلوم الطبيعية، ولا سيما بعد قبوله في جامعة فيينا، حينها ظهرت رغبته في دراسة علوم الفيزياء والكيمياء، وعلى عكس ماكانت تتوقع منه عائلته –بعد دخوله الجامعة- بدأ (ليوبولد فايس) بالابتعاد عن معتقد أسلافه وآبائه، وعن عاداتهم وتقاليدهم اليهودية، وهو سلوك أخذ يكبر معه كلما امتدت به سنوات العمر[٣].

وفي نقدهِ الديانة اليهودية كان (ليبولد) يصب اهتمامه على المُبالغة المُفرطة في تأدية المراسيم الدينية اليهودية، وإنه كان يبغض -عند اليهود- حب الاستعلاء والتفوق على الآخرين، وقد كرست هذه الكراهيّة في ذهنه اطلاعاته في هذه المرحلة على مبادئ العقيدة الإسلامية في العدالة والمساواة، وقد أدت هذه المعرفة دورًا حاسمًا في الدخول إلى الإسلام تاليا، وفي الاطلاع على التصورات الدينية المسيحية بسبب إحباطه وخيبة أمله بعد أن اصطدم بحقيقة واقع محيطه الديني بطقوسه اليهودية التي لم ترق له، كما

(١)ينظر: الطريق إلى مكة، ترتيب: صالح بن عبد الرحمن الحصين، مؤسسة الوقف، ١٤٣١هـ، ص ٨-١٠.
(٢)ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية ، ص٦٤-٦٥.
(٣) ينظر: الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، أحمد محمود أبو زيد، كتاب المجلة العربية، الرياض، ١٤٣٦هـ، ج٢/ ص٦٥.

بدأت تظهر لديه اعتراضات وشبهات حول العقيدة النصرانية وتطبيقاتها بما يتعلق بعلاقة الروح والجسد، وهو ما دفعه إلى العزوف عن النصرانية تمامًا قبل الدخول إليها[١]، فقد نفهم من خلال كلام ليوبولد فايس أنه عندما ابتعد عن الديانة اليهودية، فقد ذكر أنه سبب ابتعاده عنها، و فيما بعد أخذ ينقد هذه الديانة اليهودية.

ولعلّ ما أوضحه (مارتن م. غولدنبيرغ) الأخ غير الشقيق لـ(ليوبولد فايس)، وكما ينقل لنا (جونثر فندهاغر) يمكن ُمن خلاله معرفة التصور العقدي لعائلة (فايس) بشكل أوضح من خلال وجهات النظر السياسية، خصوصًا لكارل فايس (والد ليوبولد فايس) بقوله:(لقد كان أبي رجلاً طيبًا و مُسالمًا ومُتفتحًا، لكن لم تكن لديه تجارب كافية مع العالم الخارجي، فعندما كان شابًا أراد أن يدرس في الأكاديمية الخاصة بالأحبار اليهود ليصبح بعدها حاخامًا، إلا أنهُ انصرف عن ذلك وبدأ بدراسة الحقوق...وكان أبي رجلاً مُتأثرًا بالحركة الاجتماعية الديموقراطية، ولم يكن أبدًا محبًا للفكر الماركسي على الرغم أنّهُ مُفكرٌ مُتفتحٌ؛ فإنه كان يبدي احترام للأعياد الدينية اليهودية التي كانت تُذكّرهُ بأبيه من الناحية الروحانية، كما أنهُ كان مُناهضًا لأي فكر قومي، ولهذا السبب اتخذ موقفًا معاديًا للحركة الصهيونية)[٢].

وعندما كان في مرحلة الدراسة الثانوية بين الأعوام (١٩١٤-١٩١٨م)، فقد كانت الدراسة الإعدادية في تلك الحقبة هي المُؤسسة التعليميّة التقليديّة التي تخرّج فيها أغلب المفكرين النخبة في المجتمع الأوربي

ويذكر (ليوبولد فايس)أنه بعد نجاحه في الصف الثامن كطالب خارجي لم يتلقَّ أي دروس في هذه المدرسة، كما أنه لم يدرس في فيينا في المرحلة الإعدادية، على الرغم من إقامة والديه هناك ثلاث سنوات بسبب أوضاع الحرب[٣].

(١) ينظر: ترجمة محمد أسد للقرآن الكريم، د. إبراهيم عوض موقع شبكة أهل التفسير . https://vb.tafsir.net/tafsir.
(٢)محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص٧٨-٧٩.
(٣)محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية ، ص٨٩.

وبعد انتهاء الحرب العالمية، انتهى (ليوبولد فايس) من دراسته المرحلة الإعدادية، وأصبح الطريق أمامه إلى الدراسة الجامعية والحياة المهنية أكثر وضوحًا من قبل، بالمقارنة مع أخيه هاينرش الذي اختار دراسة الطب، وأخته راخيل التي تخصصت في دراسة الحقوق، وإن ليوبولد فايس لم يختر أي اختصاص مهني له سمعة ومكانة اجتماعية مرقومة، بل ذهب إلى التقديم في كلية الآدب والفلسفة التابعة لجامعة فيينا، وما ذكرهُ ليوبولد فايس عن نفسه في مرحلة دراسته في الجامعة أنهُ(لم يحضرعددًا من المُحاضرات على مدار سنتين، ولاسيما في مادتي تاريخ الفن والفلسفة)[١].

وبدأ(ليوبولد فايس) بالعمل كمراسل صحفي في بداية مشوار حياتهُ لمنطقة الشرق الأدنى في جريدة(فرانكفورت)في بداية مشوار حياتهِ، ليصبح بعدها من أهم العلماء المُسلمين في القرن العشرين، وفي الثمانينيات والتسعينيات وصفته مجموعة من الصحف والنشرات على صفحاتها الأولى بـ(سفير الإسلام)، و(شيخ علماء المسلمين)، و(كبير علماء الإسلام)، فقد كانت هناك الكثير من التساؤلات حول شخص يهودي مثل ليوبولد فايس تمكن من العمل كصحفي نمساوي يهودي من أن ينال هذهِ المرتبة الرفيعة بين علماء العالم الإسلامي وبدأت نشأته في المُحيط الإسلامي منذ وصوله إلى المملكة السعودية تقريبًا في نهاية شهر مايو من عام ١٩٢٧م ، إذ عمل قبل تلك المدة مراسلاً صحفيًا في عدد من الدول الواقعة بين مصر وأفغانستان من عام ١٩٢٣- ١٩٢٦وعلى أثرِتنقله بين تلك الدول تعرّف على الإسلام واعتنقه مطلقا على نفسه اسم (محمد أسد) [٢].

في حياة (ليوبولد فايس) وفي أفكاره باعتناقه الإسلام، وإعلانه ذلك أمام الملأ بمسجد (فيلمسدروف) أقدم مساجد مدينة برلين الألماني[٣]

(١)المصدر نفسه ، ص ٩١.
(٢) ينظر: طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب ،ج١.
(٣) محمد أسد، الموسوعة النمسا، موقع الجزيرة.

ب-التكوين المعرفي.

وكان أول طريق في سلم النجاح في هذه التجربة تعيينه في وظيفة محرر في وكالة الأنباء (يوناتيد تلجرام)، وبفضل تمكّنه من عدة لغات لم يكن صعبًا عليه أن يصبح بعد وقت قصير نائبًا لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الإسكندنافية، فانفتح له الطريق في برلين إلى عالم أرحب(١).

وقد عمل صحفيًا ومستشارًا ودبلوماسيًا استطاع أسد أن ينال الاعتراف والتقدير، كمُفكر وكاتب في العالم الإسلامي بأسره، لكنه لم يلق القبول والترحيب دائمًا، وخصوصًا في أوساط المحافظين، فمحمد أسد في مسيرة حياته، وفي كل ما أنجزه ُكان يشير إلى التجدد الفكري والثقافي في العالم الإسلامي، وهو ما يقف المحافظون بالضد منه دوما(٢).

وقد عمل ليوبولد فايس مراسلاً لكثير من صحف أوروبا وألمانيا وهولندا وسويسرا عن منطقة الشرق الأوسط، وشارك في الكثير من الأحداث التي شكلت مستقبل المنطقة الممتدة من ليبيا حتى الهند قبل وبعد إعلان دولة باكستان الإسلامية المستقلة بعدها.

وأثناء عمله الصحفي قد أعد أسد تقريرًا صحفيًا مهمًا عن الأوضاع الفلسطينية، وأرسله إلى جرائد عالمية عدة في أواخر عام١٩٢٢م، وبهذا التقرير اكتسب أسد سمعة وشهرة صحفية، وبعدها حصل على وظيفة في جريدة فرانكفورت المشهورة مراسلاً مختصًا في شؤون الشرق الأدنى(٣).

حيث كان يبحث على الدوام عن الحوار مع الغرب، ونبذ صور العنف، وتجنب التمييز العنصري والتقليل من إصدار الحكم المتعجل على الأمور، ويمكن اختزاله بعناوين بعض ما نشره على سبيل المثال: الإسلام في مفترق الطُرق، مبادئ الدولة والحُكومة

(١) ينظر: طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام ،حلقة يوتيوب ،ج١.
(٢)ينظر: محمد أسد من غايسيا إلى البلاد العربية ،ص٢٩.
(١) محمد أسد، الموسوعة النمسا موقع الجزيرة.

في الإسلام، الإسلام والغرب، الإسلام والسياسة، ورسالة القرآن إلا أن هذه العناوين أصبحت بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م محور النقاشات في الإعلام والصحافة[١].

ومن أهم أعماله فضلا عن كتابه قيد الدراسة، ما يأتي:

- عشرات المقالات صحيفة عن فلسطين في عشرينيات القرن العشرين مؤيدة للحق العربي وذلك قبل إعلان إسلامه.

- الإسلام على مفترق الطرق.

-كتاب(منهاج الإسلام فى الحكم)، وفي هذا الكتاب يبحث الكاتب النظام الإسلامي (السياسي)في الإسلام.[٢]

أما كتابه قد تميّزت هذه الطبعة بترجمتها إلى اللغة الألمانية من المؤلف نفسه محمد أسد، ولقد ترجم كتاب محمد أسد (الطريق إلى مكة) إلى عدد من اللغات ال عالميّة، ومن ضمنها الهولندية واليابانية والعربية وغيرها[٣].

أما كتابه (الطريق إلى مكة) فقد ترجم إلى اثنتي عشرة لغة، وقد أسلم على يديه الكثير من أبناء الغرب بعد قراءته، كما ترجم معاني القرآن إلى الإنكليزية، وترجم خمسة أجزاء من صحيح البخاري إلى اللغة الإنكليزية[٤].

(١)ينظر: طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام ،حلقة يوتيوب ،ج١.
(٢) ينظر: منهاج الإسلام فى الحكم: وهو عبارة عن بحث نشره في مدينة لاهور بإشراف الحكومة الباكستانية باللغتين الإنجليزية والأردية في آذار ١٩٤٨، ونظرا لأهميته فقد سعى الأستاذ (منصور محمد ماضي) إلى ترجمته للعربية لتيسير الاطلاع عليه للقارئ العربي، وكانت طبعته الأولى ببيروت عن دار العلم للملايين عام ١٩٥٧م، محمد أسد، ترجمة منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢ ، ١٩٧٨م، ص٤-٥.
(٣) ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص٣٢-٣٣.
(٤)ينظر: طريقة محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب ، ج١.

فقد نقل(جونثر فندهاغر) إلينا عن كتاب محمد أسد (الطريق إلى مكّة) الذي انتهى من تأليفه عام ١٩٣٢م، وهي السنة التي انتقل فيها إلى المستعمرة الهندية البريطانية مع زوجته العربية السيدة (مُنيرة بنت حُسين الشمري) التي تزوجها عام ١٩٣٠م، ومنها أنجب ابنهما (طلال)، وقد صوّر محمد أسد في مقدمة كتابه المذكور سنوات حياته التي قضت في المُعتقل البريطاني من عام ١٩٣٩إلى عام ١٩٤٥م، وبعدها مدة إقامته في باكستان إلى عام ١٩٤٧م(١).

وتأسست دولتها الحديثة بزعامة (محمد علي جناح)، وقد اكرموا ليوبولد فايس من خلال منحه مناصب دبلوماسية في العام ١٩٥٢، ثم عينوه مندوبا لدولة باكستان عند الأمم المتحدة في نيويورك١٩٥٢ وفي هذه الاثناء طلق زوجتهُ (منيرة) التي كان زواجهُ منها في عام ١٩٣٠م ، وفي عام ١٩٣٢م ولد له (طلال) ابنه الوحيد، وفي العام نفسه تمت مغادرته المملكة العربية السعودية عائدا إلى نيويورك(٢).

وفي عام ١٩٩٢م توفي محمد أسد في ٢٠ فبراير في الأندلس، بإسبانيا ودفن في المقبرة الإسلامية في قرطبة(٣).

ويعدُّ كتاب (الطريق إلى مكة) من أهم الكُتب التي تحدث فيها محمد أسد عن سيرة حياته وخصوصًا عن السنوات الأولى، إلا أن هذا الكتاب لا يمكن الاستنادُ عليه مرجعًا لسيرة حياة محمد أسد، وذلك لعدد من الأسباب: أهمها أسلوب أسد في رواية الأحداث المعتمد على ما يتذكرهُ في أثناء التأليف، وهذا ما جعل هناك فارقًا زمنيًا واضحًا بين الحدث المروي من قبله، وبين وقوع الحدث الذي عاشهُ فعلاً، وهذا يؤدي في بعض الاحيان إلى فقدان شيء من الدقة في عرض الأحداث والوقائع بعض الأحيان، والسبب الآخر الذي لابد من ذكره طبيعة الوضع السياسي والاجتماعي

(١) ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية ، ص٣٣-٣٤.
(٢)ينظر: الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، أحمد محمود أبو زيد، سابق، ص٦٦.
(٣)ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية، ص ٢٨٠.

المُحيط بالكاتب، والذي أثر في أسلوبه ، ومن ثم في العمل بأكمله الذي يجمع بين الحقيقة والخيال[١].

وفي أثناء إقامته في سويسرا تمكن أسد من الانتهاء من تأليف كتابه المهم: (الإسلام والغرب، حركة العالمين)[٢]

وقد اعتزل (ليوبولد فايس)العمل الدبلوماسي بعد أن اشتغل فيه مدة من الزمن، وتنازل عن منصب سفيرًا لدولة السويد في المغرب بعدما اعتنق الإسلام في عام ١٩٨٦م، ونشر كتابًا صدر بعنوان (رسالة القرآن)ضم ترجمة القرآن إلى اللغة السويدية، وعندما وصل إلى سوسيرا حيثُ أقام هناك مع زوجته الثانية السيدة(بولا حميدة) بعد اعتزاله العمل الدبلوماسي والسياسي في وزارة الخارجية الباكستانية، وبعدما قضى في نيويورك وألمانيا ولبنان وباكستان ودول أخرى مدة طويلة[٣].

وبعد ذهابهِ إلى برلين هناك قابل (إليسا) عارضا عليها الزواج وتزوجها بالفعل وبدأ يعيش حياة مستقرة، ويكتب اشياء من ذاكرتهِ التي سيطر عليها الإسلام، وعندما يذهب إلى شوارع برلين كان يخبر زوجته إليسا: أرى كآبة في وجوه الناس على عكس ما أراهُ عند العرب والمسلمين[٤].

وهناك سؤال قد يراود القارئ، هو: كيف كان شعور أسد عند الذهاب للمرة الأولى إلى الحج؟ وكيف كان شعوره عندما يرى الناس يطوفون حولَ الكعبة؟ وهل كانت زيارته الأولى إلى الحج؟ فقد وصف شعورهُ عند ذهابهِ للكعبة، فيقول ربما زرت الكعبة مرات عديدة ففي كل مرة يوجد اختلاف في تلك السنين كان القليل من الناس يذهبون إلى الحج ، ولم يكن هناك طائرات، فالناس يأتوا إلى جدة ثم يذهبوا إلى

(١)ينظر: مكة بوصفها مكانا استثنائيا، قراءة في سردية أدب الرحلة، د. نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، ع١٢٠، اكتوبر، سنة ٢٠٢٢م، ص ٨٣٠.

(٢)ينظر: محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية ، ص٤٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٤٦.

(٤)ينظر: طريق محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب ،ج٢.

مكة على ظهر الجمال أو الحمير، لذلك لم يكن الوضع كأيامنا هذه حيث الملايين يذهبون إلى الحج وفعلاً حدث في ذلك الوقت[١].

وقد اكمل بقية حياته في أوروبا في نيويورك وأن(بولا حميدة) مع زوجة الأخيرة هي التي ظلت معه إلى نهاية حياتهُ، أي إلى عام ١٩٩٢ م حتى وفاته، وبعده وفاته أخرجت زوجته (بولا)، و بعد ذلك قامت زوجته بإكمال كتابه(العودة إلى الوطن) الذي كان آخر ما كتبه وقامت بتكملته وإخراجه للناس[٢].

(١) ينظر: محمد أسد من عالم الغرب إلى أخوة المسلمين، ومن النظرة العلمانية إلى الإسلام، منير شفيق، ثقافتنا للدراسات والبحوث، مج٥، ع٢٠، سنة ٢٠١٠،ص ١٨٨.
(٢)ينظر:طريق محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة اليوتيوب، ج٢

المبحث الثاني : صورة مكة في كتاب(الطريق إلى مكّة) ليوبولد فايس.

أ- وصف الكتاب:

أن كتاب (الطريق إلى مكة) لمؤلفه ليوبولد فايس (محمد أسد) الألماني قد صدر أول مرّة في عام ١٩٥٤م عن الألمانية .

وقد ترجم إلى عدة لغات من ضمنها الإنجليزيّة والهولندية واليابانية والسويدية والفرنسية والأوردية، وأيضًا ترجم للعربية، عن طريق الدكتور (رفعت السيد علي)، ويحتوي الكتاب على (٥٥٩) صفحة، وقد نشر بدار منشورات الجمل، بغداد– بيروت، وكانت طبعتهُ الأولى عام ٢٠١٠م.

فقد يقسم صاحب الكتاب(محمد أسد) إلى عدة تقسيمات ويحتوي الكتاب على فهرست يوجد فيه مقدمة طويلة، وعلى أثني عشر فصلا، وكان ترتيب اسماء الفصول كالآتي: الفصل الأول (العطش)، الفصل الثاني (بداية الطريق)، الفصل الثالث (رياح)، الفصل الرابع (أصوات)، الفصل الخامس (روح وجسد)، الفصل السادس (أحلام)، الفصل السابع (منتصف طريق)، الفصل الثامن (جن)، الفصل التاسع (رسالة فارسية)، الفصل العاشر (دجال)، الفصل الحادي عشر (جهاد)، الفصل الثاني عشر (نهاية الطريق) وبعد ذلك تعريف للمؤلف في سطور وتعريف بمترجم الكتاب بسطور قليلة.

يُعدُّ هذا الكتاب من أهم الكتب التي تحدث فيها محمد أسد عن سيرة حياتهِ وخصوصًا عن السنوات الأولى منها، فقد كان يقول في المقدمة منه: إنه لا يمثل مراجع لسيرة حياة محمد أسد، فقد كان يشعر بالفخر لدور الذي قام به من خلال التنقل من برلين إلى فلسطين و مناطق شبه الجزيرة العربية، فقد خاض الكثير من المغامرات التي حدثت معهُ، وكذلك تعرضه للكثير من الصدف العجيبة أثناء رحلاتهِ إذ يروي محمد أسد في مقدمة فيقول كل المغامرات و الرحلات لا تُعد قصة حياة رجل يفتش بقصد نية عن إيمان عميق أو عقيدة بذاتها.

يقول (أسد) واصفا حكاية رحلته أنها محاولة اكتشاف رجل أوروبي للإسلام كدينٍ متكامل، إذ استبد به شعوره الغريب نحو الشرق وتحديدًا نحو الإسلام، فقد كان يقول:(لم يأت في بخاطري يوما ان أكتب عن تلك الرحلات والمغامرات فقد لا تشكل أهمية هذهِ الأحداث عند الناس باستثنائي أنا بالطبع... لذا أحسست بضرورة فهم تلك الشعوب المسلمة، لأني وجدت عندهم تلاحما عضويا بين الفكر والحواس)[١].

وبذلك نستطيع أن نقول إن كتاب (محمد أسد) هو محاولة لإثبات قناعته بالإسلام كدين اتخذه لنفسه بعد أن تحول عن دينه الذي ولد عليه، ورباه أبواه في نطاق ثقافة ذلك الدين، أي إن الكتاب هو محاولة للفهم أو محاولة لاختبار القناعات وتأكيدها عن قرب.

ب-دوافع الرحلة:

على الرغم من المشقات ومصاعب الطريق التي تعرض لها محمد أسد أثناء التنقل من بلد إلى آخر؛ إلا أنه كان يستمتع في رحلاته التي ينقلها لنا بشغف شديد، وبلهفة يشعر بها حتى القارئ العادي لهذا الكتاب المهم، فما هي الدوافع الحقيقية لرحلة محمد أسد إلى مكة؟.

لو عدنا إلى الكتاب سنجد الهيأة الناشرة تحدد دوافعها لترجمة الكتاب بالقول:(أن الإسلام يجدد الصلة بين المرء وربّه التي قطعها إنسان اليوم، حتى إذا كان المسلمون في حالة تدهور أو انهيار؛ فإن دينهم قادر على منحهم الحياة السعيدة المطمئنة التي تعينهم على التغلب على تلك الأزمات الأخلاقيّة التي يعيشها الغرب... هكذا حلل محمد أسد الوضع، فكم كان طرازا نادرا من الرحالة في عالم الأرض)[٢].

أما مقدّم الكتاب للقراء الأستاذ (الشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين) فقد حدد دوافع الرحلة في محاولة (محمد أسد) التخلص من أوهام الغرب وأساطيره التي أطر بها الثقافات الإنسانية المختلفة من أجل تمرير أحابيله وأكاذيبه لاستعباد الشعوب

(١) الطريق إلى مكة، ص ١٥٧.
(٢)المصدر نفسه، ص٧.

بتهمة تخلفها وانحطاط تفكيرها وتقاليدها وبعدها- بالنتيجة- عن القيم الروحية للغرب المتحضر، وهذه الرحلة هي معرفة حقيقية بالإسلام عن قرب[١].

أما المؤلف (أسد) فيضع أكثر من دافع للرحلة لكن أهمها ما يحصره بقوله:(كان التفكير بالإسلام يشغل ذهني، إن الأمر بدا في ذلك الوقت أنه رحلة لاستكشاف ما أجهله من تلك المناطق، كان كل يوم يمر يضيف إلي معارف جديدة، ويطرح أسئلة جديدة، لأجد إجاباتها تأتي من الخارج، جميعها أيقظت شيئا ما كان نائما في أعماقي، وكلما نمت معارفي عن الإسلام كنت أشعر مرة بعد أخرى أن الحقائق الجوهرية التي كانت كامنة في أعماقي من دون ان أعي وجودها بدأت تنكشف تدريجيا، ويتأكد تطابقها مع الإسلام في هذه الرحلة)[٢].

ويوضح المهتدي للإسلام محمد اسد دوافعه فيقول عن رحلته:(لم يكن لي طريق آخر غير هذا الطريق، ومع أني لم أتعرّف عليه على مدى سنوات بداية عمري، إلا أن مكة كانت هدفي واتجاهي، كانت تناديني منذ زمن طويل قبل أن يعي عقلي انها تناديني، كانت تعلن بصوت قوي: مملكتي في الحياة الدنيا كما هي في الحياة الآخرة، فمملكتي للجسم كما هي للروح، تتسع لما يفكر فيه الإنسان، وما يحسّه ببدنه وما يفعله، تجارته وصلاته، فراش نومه وعلاقته بالآخرين، مملكتي لا تعرف حدّا ولا نهاية... كانت أخوة الإسلام بانتظاري منذ مولدي، واعتنقت الإسلام، وتحققت آمالي في الانتماء؛ لأكون جزءا من كلّ واحد)[٣].

وهكذا، يرى مؤلف الكتاب أن هناك تحيّزا في الأفكار الأوربية عند الغرب على العكس مما موجود في الثقافة الإسلامية، والنظرة النموذجية للإسلام التي تساوي

(١) ينظر: الطريق إلى مكة، ص٢٠.
(٢)المصدر نفسه ، ص ٢٨٠- ٢٨٢.
(٣)المصدر نفسه، ص ٣٦٧.

بين الديانات السماوية الثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية. بينما وجد عند المسلمين الأخوة ووحدة الفكر، ووحدة العمل الذي عرف به المسلمون.

فمنذ الحروب الصليبية أُشيع في أنحاء أوروبا إن الإسلام دين عنف وقسوة وفيه الظلم والكفر، وحب الهيمنة والبداوة الفظّة، وأنه دين طقوس لا دين تطهّر، ويرى محمد أسد أن أوروبا تستمتع بالوعي الثقافي والمادي، وتحرّمه عن غيرها من شعوب الأرض.

يقول: لا أرفض أن يتعلم المسلمون من الغرب، خاصة العلوم التقنية، فاكتساب العلم ليس تقليدًا ولا محاكاة، فالعلم لا ينحصر على الشرق والغرب، بل لكل جنس بشري موجود على هذهِ الأرض[١].

ج-صورة مكَّة في كتاب (ليوبولد فايس)

١- مقدمة الرحلة:

لما كانت منطقة المشرق العربي ميدانا دائم التشويق للرحالة الأوربيين على اختلاف مشاربهم، إذ إنّ هناك –على الدوام- مستشرقين ألمان وإنكليز وأسبان وغيرهم يتلهفون إلى زيارة الحج وزيارة البقاع المقدسة كثيرًا[٢]، فإن رحلة محمد أسد إلى المشرق العربي وإلى الديار المقدسة لا تنتمي إلى نوع الرحلة التي تهدف إلى تقديم معلومات جاسوسية للغرب، ولا هي من النوع الذي ينتمي إلى نوع من الرحلات التي تريد تكريس الصورة القديمة التي رسمتها المخيلة الأوربية عن الشرق، وإنما هي نوع من الرحلة التي تقوم على تحصين الذات من خلال فحص القناعات الداخلية الخاصة، أي أن محمد أسد حينما اعتنق الإسلام مختارا كان بحاجة إلى ما

(١) ينظر:الطريق إلى مكة، ص٥١٦.
(٢)ينظر: أدب الرحالة في النثر الجزائري الحديث، إعداد: (أ.د عبد المالك ضيف)، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف، ميلة، معهد الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، ص٤.

يؤكد هذه القناعة من خلال ممارسة طقوس المسلمين واختبارها لتأكيد صحة ما اختاره لنفسه، وكما سنأتي على إيضاح ذلك.

ولما يقول (أسد): (لم أعد أجنبيًا ولا غريبًا، أصبحت الجزيرة العربية موطني، وتحول ماضيي الغربي إلى حلم بعيد، مضيفا، ويزداد قلقي ويعزوني الشغف إلى المغامرة والحركة، وأشتاق إلى جو الصحراء وإلى رائحة الأبل... وقد دفعتني تلك الرغبة إلى المخاطرة والذهاب إلى عالم مختلف تمامًا في مداركه الدفينة وفي مظهره الخارجي، عالم يتضح كليًا مع عالمي الذي ولدت ونشأت فيه هناك في أوروبا[١]، فهو يعلن عن نزعته المتخلّية عن إحساسها بالتفوق الذي لازم المستشرقين عند الحديث عن الإسلام والمسلمين).

ويقول: (حين تقف أمام الكعبة في الساعات الأولى من الصباح، وقبل الفجر بساعتين اي تقريبًا الساعة الثالثة صباحًا، لا يوجد ناس كثيرون تطوف، دائمًا يوجد ناس حولَ الكعبة مرّة أو مرّتين رأيت شخصيًا واحدًا يطوف حول الكعبة، مرّة كنت جالسًا قبل وقت الفجر أنتظر آذان الفجر شعرت، وأنا أمام الكعبة أن الله لا يسكن في أي بيت أو مكان أو يوجد في حيز، لأنه لا محدود، وهذا كان لي أقوى تجربة روحانية عشتها في ذلك الوقت)[٢]، وعلى الرغم من الأحداث التي جرت مع أسد في أثناء توجهه نحو الشرق إلا أنه لم يتراجع عن فكرة تتبع الإسلام، وما جرى فيه من أحداث وحياة تختلف عما عند الغرب التي يسود فيها العنصر المادي والثقافي، أما عند الشرق فقد كانت حياتهم يسودها العنصر الروحي والعاطفي، فقد كانت عندهم حياتهم تختلف اختلافا كبيرا عن الغرب كانت شبه معدومة، وهذا الذي حبب أسد أكثر في الإسلام، فقد وجد أنهممنفتحون وممتعون في التعامل.

ويرى أسد العرب–بداية أمره- بدوا غير متحضرين، ومع مرور الزمن أحسّ بتآلف عميق معهم، شاعرا بالانتماء إليهم أكثر من انتمائه إلى موطنه الأصلي.

---

(١)الطريق إلى مكة، ص٤٢.
(٢)المصدر نفسه، ص٤٥.

ويصف (أسد) بداية رحلته بقول مؤثر يضعه بداية الفصل الأول من الكتاب الذي يأخذ عنوانا دالا، هو العطش، فيقول بأسلوب أدبي واضح:(كنا نسير بلا توقف، رجلين على ناقتين، وشمس ملتهبة حارقة، كل شيء يسبح في ضوء مبهر قوي، كثبان رملية تعكس أضواء حمراء وبرتقالية تبهر البصر، كثبان بعد كثبان، بلا نهاية، وحدة وصمت محرق، رجلان على ناقتين يتأرجحان في رتابة لا يتغيّر إيقاعها على وقع الخطى)[١].

ولم يكن (أسد) على الرغم من جرأته وقوته النفسية قادرا على قطع هذه الصحاري الشاسعة والمخيفة بمفرده دون دليل من البدو العارفين دروبها ومثاباتها التي تجرفها الرياح والرمال المتطايرة في كل حين، ولذلك يتخذ من (زيد) الرجل ذي المواصفات الخاصة وبخبرته الطويلة بالمكان رفيقا لهذه الرحلة[٢].

ويخصص الكاتب مساحة كبيرة من فصل كتابه الأول للحديث عن تشوّقه إلى رؤية مكة مختصرا ذلك بقوله:(بدأت أشعر بما لم أشعر به خلال كل الأعوام التي قضيتها بالجزيرة العربية، مما يعني أن مكة كانت بالنسبة لأسد مثل الحلم وقد حققهُ في نهاية الطريق، فهو يعشق صحاريها ومدنها وشعبها وأسلوب الحياة فيها، حيث نمت بداخله قناعة أن الجزيرة العربية قد وهبته كل ما يمكن أن تهبه لإنسان)[٣].

٢- صورة مكة بين الواقع والتزيين:

ينطوي أدب الرحلة على إشكالات جمة تتركز أغلبها في مسألة الإحالة على المرجع الواقعي، فمن خلال تأرجحه بين الواقع والخيال يقدم أدب الرحلات تحديات

(١) الطريق إلى مكة، ص ٤٣.
(٢) ينظر: الطريق إلى مكة ، ص ٤٥ وما بعدها.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٠٨.

متنوّعة وذات طبيعة معرفيّة، فالقرّاء عليهم الصراع الدائم مع صحة المعلومات المقدمة دائما، وعليهم الفصل بين سردين مختلفين لمكان واحد[١]، وهو ما يعني أن طبيعة السرد في أدب الرحلات هي طبيعة متأصلة في التجربة الشخصية للكاتب نفسه، إذ مرّ بنا كيف أن (روش) يرسم صورة تبخيسية للمشاهد التي رآها (محمد أسد) نفسه، لكن الأخير لا يرسم الصورة ذاتها بسبب اختلاف تجربته الشخصيّة وموقفه من المكان المرسوم، وكما سنأتي على إيضاح ذلك.

فأسد يشعر أنه محط أنظار الكثير من الناس في المكان الذي سيزوره، وخلال السنين التي قضاها في الجزيرة العربية ذاب في حياة الناس حتى صار واحدًا منهم، فضلا عن قيامه بدور متعهّد الحجاج الذي يدخل في مناقشات مطولة مع ركاب يحدثهم عن فضائل الحج مستمتعًا بالمناقشات الدائرة بينه وبين الآخرين[٢].

وهو حين يصور حال الناس في الحج يقول: قد اختفت كل الملابس الملونة للرجال فلا ترى طربوشًا تونسيًا أحمر على الرأس، ولا برنسا مغربيًا أبيض، ولا جلابيب مصرية ملونة، ففي كل ما حولك لا ترى إلا ملابس الإحرام البيضاء اللون المتواضعة الخالية من أي تزويق ملتفة حول الأبدان تتحرك بعزّة وفخار[٣].

ولعلّ هذه الصورة تكشف عن وجدان متسام لكاتب يكتب بكلّ انحياز لكل ما يراه أمامه من مشهد مدهش.

وحينما يصور الجموع الهادرة وهي تهتف بالتلبية قبل أن تصل مكة تجده يقول: تصاعد من جديد صوت التلبية: " لبيك اللهم لبيك " صيحة تهز الأعماق فيها استسلام لله، وقد انتشر الحماس بين الحجاج على السفينة وعبر صفحة الماء باتجاه البلد الذي به معقد الآمال العظيمة، كانت أملهم، وأملي بالنسبة لي كان رؤية ساحل الجزيرة العربية خلاصة سنوات من البحث، نظرت إلى (إلزا) التي كانت ترافقني في

(١) ينظر: أدب الرحلات، كارل طومسو، ص ٧٨-٧٩.
(٢) ينظر: الطريق إلى مكة، ص ٤٨٩.
(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٥٢٩.

الحج ، قرأت المشاعر نفسها في عينيها ... وقد شاهدنا بعد ذلك ثم رأينا أجنحة بيضاء كثيرة تخفق من الأرض باتجاهنا وكانت القوارب الساحلية بأشرعتها البيضاء اللاتينية تشق طريقها فوق صفحة الماء الهادئة بنعومة وتحت سطح الماء، ليأخذوا الركاب الذين امتلأوا سعادة لمرأى الأرض المقدسة، وقد كانت تملأني الأحلام والتوقعات، ويد زوجتي في يدي... هل يوجد ما يعمق حياتنا أكثر من الحج؟ وقد وجدت نفسي مجبرًا على التفكير من جديد وكان من مثلي تمامًا يفكر فيما يجلبه المستقبل، بينما لم أرد أنا إلا أداء الحج(١).

فبهذه الطريقة التي يزين بها (محمد أسد) المشاهد المرئية استطاع أن يصوّر نفسه ضمنيّا أو صراحة على أنه الأوربي المهتدي والمقتنع بهذا الدين، وأن كل ما يراه ما هو إلا سعادة خالصة لا يمكن تصويرها ولا يمكن وصفها، وأن المعرفة الحقيقية لها تكمن من خلال اكتشاف المكان بزيارته ورؤيته عن قرب، وعندما يقول:(كنت أسمع الناس تتحدث بكل لغات العالم بصوت " لبيك اللهم لبيك " ، وهذا يدل على قوة رابطة الإيمان بين البلدان من مختلف القوميات والأجناس العربية وغير العربية لأعلاء كلمة الله والتقرب إليه.

فقد كان الحجاج منهمكين بعد رحيل الليل، ولم يعرف إلا القليل منهم كيف يستغل وقت الراحة، كانوا لا يرتاحون، يتحركون من مكان إلى آخر)(٢)، فهو لا يقدم صورة واقعية لما يراه بقدر ما يقدم تصويرا لمنظور معين عن العالم الذي يراه، وأنّ هذا التصوير مرتبط بالموقف الثقافي والأيديولوجي للرحالة الذي يتحدث عن مكان أحبه ووجد فيه ملاذا آمنا لروحه التواقة إلى الحقيقة.

٣- صورة الكعبة

كيف رأى محمد أسد الكعبة الشريفة ؟ وكيف صورها ؟

---

(١) الطريق إلى مكة، ص٥٣٢.
(٢)المصدر نفسه، ص٥٣٦-٥٣٧.

تعدّ الكعبة المشرفة من أقدس البقاع في العالم الإسلامي، وقد ذكرها الله بكتابه العزيز إذ قال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(١)، ولذا حظيت بالتبجيل والتقديس، وزادت عظمتها في نفوس المسلمين عندما جعلها الله قبلة يتوجهون إليها في صلاتهم التي لا تصح إلا بالتوجه لها، ولذا نهى الرسول الكريم عن استقبالها أو استدبارها في غائط أو بول، وعن عمرانها وخدمتها من مال حرام أو مشكوك فيه.

وقد كانت –على الدوام- موضع استغراب الرحالة غير المسلمين، وموضع دهشتهم التي لا يجدون لها تفسيرا عند رؤية الملايين من الطائفين حولها والمتمسحين بأركانها وأستارها بكل خشوع ورهبة يحاول محمد أسد أن يجد لهذه الصور مبررات وتفسيرات منسجمة وموقفه الثقافي والشخصي، فالكعبة والحجر الأسود داخلها موضع تبجيل لا موضع عبادة ، لأنه كل ما تبقى من البيت الذي أسسه أبو الأنبياء إبراهيم –عليه السلام-، ولأن الرسول الأكرم محمدا قبّله في حجة الوادع قبل موته، وقد كان الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به، وكان الرسول واعيًا أن كل أجيال المسلمين من بعده ستقتدي به في أفعاله وأعماله، وكان يعلم أنه بتقبيله للحجر ستلتقي شفاه كل أجيال المسلمين من بعده في الموضع نفسه، فالحجاج حين يُقبلون َالحجر الأسود –بحسب أسد- كأنما يحتضنون الرسول ويحتضنون كل المسلمين الذين جاءوا هنا من قبلهم و كل المسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم .يقول أسد :(لم أشعر برهبة كما أشعر بها الآن أمام الكعبة ، لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية، في البساطة المطلقة)(٢)، فقد نستنتج من خلال النص أن محمد أسد كان موضعه موضع استغراب أن هذهِ الرهبة و الخشوع أثناء الوقوف أمام الكعبة، نجدها عند المسلمين في مواضع

(١) سورة المائدة: الآية ٩٧.
(١) الطريق إلى مكة، ص ٥٤١.

التقرب من الله، ففي هذهِ الحالة نجد أن محمد أسد كان شديد الرغبة في التقرب من الله كمسلم كباقي المسلمين.

أما الأرض التي وضعت عليها الكعبة الشريفة فيصفها بقوله:(بسيطة جدًا أرضها من الرخام عليها بضعة بسط ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف الخشبية داخل الكعبة، ولا يحمل في الحقيقة أي معنى في ذاته، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامي، في اتجاه هذا الرمز إلى وحدانية الله، ويوجد مئات الملايين من المسلمين أوجههم نحوها في الصلوات الخمس كل يوم)[١].

ويصف حركة الرجال والنساء الطائفين حولها وكان بينهم من يجهش ببكاء صادق، وآخرون يدعون الله جهرة في الصلاة وغيرهم ممن لم يجد كلامًا ولا دمعًا راح يطوف ورأسه منكس في الأرض.

فمن شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حوله الكعبة، لا لتظهر تبجيلك لها، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة، فالكعبة رمز لوحدانية الله، وطواف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة المشتملة على عبادة الله بالفكر والمشاعر وحدهما، وكل ما يمكن تسميته "الحياة الداخلية "بل الفعل الديني والبدني والجسدي، وبذلك يكون الوجود الإلهي هو محور الوعي الذهني والفعل الديني الذي لم يدع نبي الإسلام أنه ابتدعه، فالاستسلام لله، والتسليم لمشيئته كان طبقًا لما يذكر القرآن هو فطرة الإنسان التي خلق عليها منذ فجر الوعي الإنساني، وأنّ عبادة الأوثان التي حطمها محمد في هذا المكان ما هي إلا عملية استعادة لفعل أبيه إبراهيم الذي أنكر الشرك بالله ونبذه[٢]، وقد نفهم من ذلك أنه، قد يفرض الحج على كل مسلم بالغ عاقل، قوله تعالى:(وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً و على ضامر يأتيك من كل فج عميق)،كذلك يذكر الرسول محمد(ص)(يا أيها الناس فقد فرض عليكم الحج فحجوا) فقد تبدأ مناسك الحج في اليوم الثامن من ذي الحجة يتوجه إلى مكّة ليطوف و بعد ذلك التوجه إلى منى لقضاء يوم

(١)الطريق إلى مكة، ص٥٤٢-٥٤٣.
(٢) ينظر:الطريق إلى مكة ، ص٥٤٣.

في ترويه ثم يتوجهون في يوم التاسع من ذي الحجة إلى عرفة لرمي الجمرات وبعد ذلك في يوم العاشر يطوف المسلمون حول الكعبة سبع أشواط، فقد يقولون في كل شوط مبتهلين إلى الله (لبيك اللهم لبيك ..لبيك لا شريك لك لبيك أن الحمد و النعمة لك و الملك لا شريك لك لبيك)، فقد تذكر الشعيرة عند أداء الطواف، بعد ذلك يقوم الحج و السعي بين الصفا و المروة .

ويلخص (محمد أسد) رأيه بهذه المشاهدات من خلال إعلان موقفه من الإسلام كدين حضاري صالح لكل زمان ومكان، فيقول مختصرا مشاهداته للحج:(إن الإسلام كمفهوم فكري واجتماعي يمكن أن يقارن بكل النظريات والمعتقدات الأخرى، وبالرغم من تفهمهم أحيانًا لمعقولية بعض ما يذهب إليه الإسلام، إلا أن أغلبهم كان يرى أن الأديان القديمة أصبحت شيئًا ينتمي إلى الماضي، وإن عصرنا وزماننا يحتاج إلى منهج إنساني آخر جديد)[١].

ويؤكد هذا الموقف في كتابه اللاحق (الإسلام على مفترق الطرق) ذاهبا إلى أن نجاة البشرية من انهزامها العقلي تكمن في اتباع الاسلام بوصفه نظاما نحكم من خلاله على العالم[٢].

وهكذا، فإن محمد أسد لا ينظر لكل مفاصل الإسلام من منظار السارد المختلف، لأنه يشعر بأنه فرد ضمن هذه الحضارة التي اسمها الإسلام التي لم تحسسه يوما بالمغايرة عن الجماعة التي قرر الانتماء لها على الرغم من اختلاف لونه ولسانه.

أما ثقافته ووعيه فهما موظفان للدفاع عن الإسلام بكل عناصره، ولعل في الصورة التي يرسمها للكعبة المشرفة خير دليل على ذلك، فهي صورة لا تختلف عن الصورة التي من الممكن أن يرسمها أي مسلم مؤمن برسالة الإسلام ومؤمن بأحقيته

(١) المصدر نفسه ، ص٤٥٦-٤٥٧.
(٢) ينظر:الإسلام على مفترق الطرق، مصدر سابق، ص٦٧.

في الدفاع عن رموزه وطقوسه وعباداته وشعائره التي يؤديها المؤمنون بهذا الدين أمس واليوم وغدا.

٤- صورة المصلّين:

أول ما أثار (محمد أسد) بهذا الخصوص هو مشهد جموع المصلّين في الجامع الأموي، فما أن رآهم يصطفون في صفوف طويلة منتظمة خلف إمامهم يقولون هامسين ما يقول حتى انتابته قشعريرة لهول الموقف، وأدرك –حينئذ- مدى قرب الله من هذه الجموع وقربها منه، وأن ما يعظم هذه الممارسة هو أنها جزء من حياتهم اليومية، وقد شعر لحظتها بضرورة فهم تلك الشعوب الإسلامية لما وجده عندهم من تلاحم عضوي بين الفكر والحواس، ذلك التلاحم الذي لم تعرفه أوربا بعد(١).

ولذا يذكر أسد قائلا: تصيبني الحيرة عندما أشاهد المسلمين كيف يتجمعون بشكل منتظم لأداء الصلاة، كانت الصلاة تتضمن حركات آلية للبدن، فسألت أحدهم مرة: أتعتقد حقًا أن الله ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع و السجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلي إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ لماذا كل هذهِ الحركات بالجسد ؟.

ويقر أسد بندمه بعد الانتهاء من تساؤله لئلا يجرح مشاعر الرجل الدينية، غير أنه لم يبد على الحاج أثر لإهانة أو جرح ، فقد ابتسم قائلاً :(بأي وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله ؟ ألم يخلق لنا الروح والجسد معًا؟ وكونه خلقنا جسدًا وروحًا ألا يجب علينا أن نصلي بالجسد والروح؟ اسمع، سأخبرك لماذا نصلي نحن المسلمين كلما نصلي نتوجه إلى الكعبة، وكل مسلم يتوجه إليها أثناء الصلاة، فنشعر أننا جسر واحد، نتوجه إلى مركز واحد بفكرنا ووجداننا، نبدأ أولاً بالوقوف منتصبين، ونتلو آيات القرآن واضعين نصب أعيننا أنها كلام الله أنزله للبشر لهدايتهم ونفعهم، ثم

(١) ينظر:الطريق إلى مكة، ص٥٨.

نقول:" الله أكبر" مذكرين أنفسنا لا يوجد من يستحق العبادة غير الله وحده ثم نركع أمامه لأننا نجلّه فوق كل شيء ونسبح بعظمته وقدرته) [١].

ويصور لنا أول مكان أقيمت فيه الصلاة أي مسجد الرسول الأكرم، فيقول: "كانت مساحة المسجد تحتوي قبر الرسول المزخرف من الداخل بالآيات القرآنية والمغطى الأرض الرخامية التي تعلوها أبسطة نفيسة، وفوق محاريبه الثلاثة مصابيح زيتية من البرونز وكل محراب عبارة عن تجويف حائطي باتجاه مكة، وفي أثناء النهار يمتلئ المسجد بنور أقرب إلى الأخضر يشبه قاع البحيرة ويبدو المصلون بأقدامهم العارية كأنهم يصلون في ماء، وبالقرب من المحراب ارتفع صوت قارئ يتلو آيات القرآن كما يحدث دائمًا قبل صلاة المغرب كان يتلو في ذلك اليوم (سورة العلق) وهي أول مانزل على محمد من قرآن .أما المؤذن ففي ترديد (الله أكبر) بصوت عميق، وكانت أصوات المؤذنين في المكان تنزلق على أجنحة صوتية ناعمة: أشهد أن محمدًا رسول الله، واستمر الأذان يتتابع وتتداخل أصواته، حي على الصلاة، حي على الفلاح، وبدا كل صوت كأنه يوقظ النداء الذي يليه، وهكذا حتى نهاية الأذان: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، ويختم أسد وصفه ذي الطبيعة الأدبية قائلاً : عند كل أذان كان يخفق قلبي ويقفز إلى حلقي في حب مثير لهذهِ المدينة وأصوات مؤذنيها...فبدأت أدرك أن كل تجوالي لم يكن له إلا لهدف واحد، هو: أن أصل وأحقق المعنى من ذلك الأذان"[٢].

ويصف (أسد) انتظامه لأداء فريضة الصلاة، فيذكر اتجهنا ثلاثتنا نحو مكة ليقف رفيقاي الاثنان جنبًا إلى جنب وأتقدمهم أنا لأؤمهم، فرفعت كفي وبدأت بالأذان: الله أكبر... ثم تلوتُ سورة الفاتحة وتبعتُها بالإخلاص، حتى أتممْنا الصلاة، فالإسلام يركز على أهمية صلاة الجماعة التي تجعل الناس يتقاربون من بعضهم متلاحمين

(١)الطريق إلى مكة ، ص١٥٤.
(٢) ينظر:المصدر نفسه ، ص٤٢٦-٤٢٧.

للاتصال بالخالق العظيم، منتهيا إلى مقولة تجسّد موقفه من الصلاة بالقول: لايوجد طقس مقدس بأبعاد تربوية وأخلاقية في الإسلام أكثر من الصلاة[١].

وربما استهوته طبيعة البدو العرب التي كان يرى فيها (حياة حقيقة) تلك الصورة الجميلة للعرب البدو أدت دورًا مهمًا في اعتناق أسد الدين الإسلامي ، فيقول:(تشغل روحي و فكري أحاسيس جميلة و مريحة ، عندما أرى هؤلاء البدو العرب في أثناء إقامتهم الصلاة، أن صلاتهم ليست مجرد تأدية طقوس دينية معينة فحسب، بل أكثر من ذلك أكثر من مسألة دين أو تأدية صلاة)[٢].

وتأسيسا على ما تقدم، فإنّ (محمد أسد) المستشرق المسلم حين يصوغ تصوراته الذهنية عن عبادة المسلمين وصلاتهم؛ فإنّه يصوغها طبقا لمواقفه الثقافيّة ومشاعره النفسيّة، وحين دوّن انطباعاته عن المكان / مكة؛ فهو لم يصدر أحكاما عن عالم غريب عنه، وتعوزه المعرفة بتفصيلاته وعادات أهله ومعتقداتهم، مثلما فعل قرينه (جون وافل) و (ليون روش)، بل نستطيع القول: إن أسد يعرف المكان مثلما يعرفه أهله، وهو ما يفسّر ارتباط هذه الرحلة بالتحيزات الثقافيّة التي أعلنها الكاتب (فايس) للشرق الإسلامي الذي كانت مكة المكرمة بالنسبة له فضاء أرحب وأغنى للتأمل وللاستغراق في اكتشاف قناعاته بالإسلام كثقافة جديدة ومغايرة، بينما كانت القفار والصحاري من حولها مهربا له من زحمة المدنية الأوربية واختناقها، فالصحراء شكلت(قطبا جاذبا لاهتمام معظم الرحالة الغربيين، فهي فضاء مفتوح مثير للفضول بمقدار ما هو مثير للتحدي)[٣]، وبذا فالصحراء تمثّل لمحمد أسد انقطاعا عن عالم استعماري صناعي يقوم على الاستغلال والربح، وغياب العلاقات الإنسانية الدافئة القائمة على المحبة والاندماج بالكون عبر التفاعل مع خالقه بالعبادة والصلاة.

(١)الطريق إلى مكة ،٣٢٥-٣٢٦.
(٢)ينظر:المصدر نفسه ،ص ٢٢٣،٢٢٠.
(٣) المطابقة والاختلاف، عبد الله إبراهيم، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط- بيروت، ط١، ٢٠١٧م، ج٣/ ص ٢٦٨.

أما الصلاة فهي الوسيلة التي كانت تؤكد اندماج هذا الرحالة المستشرق بالمجتمع الذي يكتشفه، وهو باندماجه مع المجتمع الجديد في تأديتها يمنح لنفسه لونا من ألوان التوازن والاستقرار النفسي الذي يبحث عنه.

٥- صورة المرأة:

لا تحضر المرأة في كتاب (الطريق إلى مكة) بوصفها جسدا مثيرا للرغبات، وإنما بوصفها كينونة أنثويّة تستحق الحب والإجلال لأنها شريكة للرجل، فحين يتحدث عن رفيق رحلته زيد يقول عنه مثلا: كان لهُ الشرف أن يناسب امرأة عراقية الأصل كان قد أحبها كثيرًا مصورًا جانبًا من هذا الحب بما يقوله زيد عنها: (لقد أبهجني حبها فوق ما يطيق عقلي)[١].

ولما كان محمد أسد يتنقل بين أرجاء الصحراء العربية فكثيرا ما كان يصادف البدويات من عرب نجد، وينقل لنا أنه حينما أدلى بدلوه في بئر على أطراف إحدى الواحات القريبة من مكة وما أن رفع دلوه حتى رأى(بعض نساء القرية وهن يحملن جرارا نحاسيّة وفخاريّة لملئها بالماء، كنّ يحملن الجرار على رؤوسهنّ في اتزان ورشاقة من دون أن يسندنها بأيديهن التي امتدّت على جوانبهنّ لحفظ توازن الجرار حاملاتٍ أطراف أغطية رؤوسهنّ باليد الأخرى، كأنهم طيور ترفرف بأجنحتها)[٢].

ولعلّ في هذا التصوير لهؤلاء النسوة كشفا لأعماق أحاسيس (محمد أسد) ما دام أدب الرحلات(نوعا أدبيا يركز على السيرة الذاتية بشكل كبير، ويعنى بشكل نمطي باكتشاف وتقديم ذات المسافر الراوي مثلما يعنى باكتشاف وتقديم سرد عن العالم)[٣].

التشبيه الدال (النساء العربيات البدويات في محيط مكة بالطيور المرفرفة) قد يكشف لنا موقف (أسد) من رسم هذه الصورة التي تمتزج فيها العلاقة الوثيقة بين طرفي

(١) ينظر:الطريق إلى مكة، ص٨٩.
(٢)المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.
(٣) أدب الرحلات، كارل طومسون، مصدر سابق، ص١١٢.

التشبيه في منح معنى جديدٍ للحياة بوجود (ركني التشبيه) في هذه الواحة المحاطة بالرمال من كل اتجاه[١]

ويطرح أسد سؤالا على نفسه بخصوص مسألة طالما أرّقت المستشرقين دون أن يجدوا لها حلا شافيا يتوافق وأطروحات الإسلام بوصفه نظاما كونيا شاملا، وهي مسألة تعدد الزوجات في الإسلام فيقول مجيبا عن السؤال المطروح، وهو:: لماذا الإسلام لم يمنح الحق نفسه للمرأة؟[٢].

إن الزواج في الإسلام ليس مقدسًا، بل أنه تعاقد مدني، فالطلاق حق متاح دائمًا لطرفي العلاقة، ودرجة العار التي تصاحب المرأة المطلقة في المجتمعات غير الإسلامية غير موجود في أعراف الإسلام، وفي الوقت الراهن تتيح الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حرية الزواج والطلاق، فالزنا من أشنع وأبشع الكبائر، ولايوجد مبرر عاطفي، ولاحسي لمقترف الزنا، أما التخلف الاجتماعي الذي يجعل من الصعب للمرأة أن تطالب بحقها في الطلاق فما يلام به المجتمع ذاته، لا الإسلام، إذ لانجد في القرآن، ولا في حياة الرسول (ص) أي محاذير على ممارسة المرأة لحقها في طلب الطلاق[٣].

ومن خلال ذلك نستنتج ما تقدم يتبيّن لنا أن (محمد أسد) المسلم الذي كان اسمه (ليوبولد فايس) في رسمه لصورة مكة وتفاصيلها التي أوجزناها لا يرتكز على ثقافة الأوربيين المعروفة بطغيان الشعور بالهيمنة والغطرسة، بقدر ما كانت صورة منقطعة عن ذلك السياق الذي حاول تنميط صورة المسلمين ورموزهم وأمكنتهم وعاداتهم بإطار تبخيسي، وهي صورة تحكمها رغبة تعديل كفة الموازين بين عالمي الشرق والغرب، وهي رغبة ما كان لرحالة ومستشرق أن يصل إليها لولا ثقافة عالية

(٤)الطريق إلى مكّة، ص٤٢٤
(٢)ينظر:الطريق إلى مكة ، ص٤٢٤.
(٣)المصدر نفسه، ص٤٢٥.

وفكر إنساني متسامح وقادر على موضعة الآخر في موقعه الملائم، و أنه لغة كتابته سهلة وواضحة ومفهومة لدى القارئ .

خاتمة البحث و نتائجه

من الممكن أن نسجل نتائج البحث بالنقاط الآتية:

- إن أهمية البحث هو فعل الرحلة وما يتمخض عنها من أدب خاص ومختلف ومسهم في تشكيل صورة ثقافية عن المكان المقصود، وإن هذه الصورة جديرة بالفحص والتحليل لأنها بمثابة المرآة التي تعكس طبيعة المرئي، وحدوده في أذهان الرحالة من خلال كتاباتهم.
- كانت مكة المكرمة –على الدوام- من الأمكنة المهمة التي تشد إليها الرحال من الأصقاع المختلفة. فإذا كانت رحلات المسلمين لهدف ديني تعبدي؛ فإن رحلات الاوربيين هي نوع من أنواع الرحلات المستدعية لمعرفة المعطيات الثقافيّة التي سطرت الأدب المكتوب بفعل الرحلة، لاختلاف الغايات والدوافع والمرامي.
- وقد ظلت هذه المدينة على مدار التاريخ مكانا غامضا بالنسبة للآخر غير المسلم، أو للغربي أو الأجنبي الذي كان يزورها، سرا أو علانية، متنكرا متخفيا أو كاشفا عن حقيقته، فيكتب عنها بدوافع وغايات مختلفة.
- ارتسمت لمكة صور عديدة في كتابات الرحالة والمستشرقين الأوربيين، وهي صور معبّرة عن دوافع وغايات مختلفة، لكنها مرتبطة بأصحابها وبثقافتهم وبموقفهم من مكة مركز العالم الإسلامي.
- كانت دعائم الصورة التي أرسى قواعدها(آرثر جون وافل)تقوم على مبدأ (الحياد)في رسم أبعاد صورة مكة التي نقل ما ألتقطته عيناه فيها بعيدا عن رغبة التبخيس أو المبالغة في التقديس، وكانت المهمة التي تضطلع بها هذه الصورة هي (الرصد الحرفي) لمشاهدات الرحالة دون تزييف أو تبجيل.
- بينما كانت الصورة الغالبة على نشاط(ليون روش)في تقصي أبعاد تصويره لمكة تقوم على مبدأ التبخيس، لأنها صورة مغرضة تتقصد تشويه الحقائق، وتزييفها في مواضع كشفتها الدراسة من كتابه، لأنها تعتمد تكريس الصور الذهنية المتوارثة عن العقلية الأوربية بعقدها القائمة على تمركز الجنس

الابيض الاوربي وإحساسه بالتفوق على من سواه من الأجناس البشرية الأخرى.

- أمّا الصورة التي انبرى إليها المستشرق الألماني(ليوبولد فايس)ذو الأصول اليهوديّة الألمانيّة، والمسمي (محمد أسد) بعد دخوله الإسلام لاحقا؛ فهي صورة متحيّزة للثقافة الإسلامية، معبّرة عن قيمها الروحية، منسجمة مع ذات صاحبها الباحثة عن خلاص روحي وجده بين المسلمين في إسلامهم العظيم، وهي بالتالي صورة تقوم بمهمة الدفاع عن قيم الحضارة الإسلاميّة، وتنبري لوظيفة التصدي لأعداء هذه الحضارة والمتهجمين عليها ممن يجهلون حقيقتها من الأوربيين أو ممن يعلمون هذه الحقيقة ويحاولون إخفاءها.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: الكتب .

- أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، إدوارد سعيد، عبد الله العروي، د.نديم قاسم نجدي، دار الفارابي – بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

-اثنتان و ثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، محمود خير محمود البقاعي، جداول- لبنان، ط١، ٢٠١١م.

-الآخر في أدب الرحلة دراسة أنثروبولوجية، د. وائل بن يوسف العريني، دار المتوسطة للنشر، ١٤٤١هـ -٢٠٢٠م.

-الاستشراق تعريفه ، مدارسه ، آثاره، د. محمد فاروق النبهان، المنظمة الإسلامية والعلوم والثقافة إيسيسكو المملكة المغربية(الرباط)، ٢٠١٢م.

-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، د.محمود حمدى زقزوق ، كتاب الأمة(قطر)، ط١، ١٤٠٤هـ.

-الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد ، ت: د. محمد عناني، دار رؤية(القاهرة)،ط١، ٢٠٠٦م.

-الإسلام على مُفترقِ الطُرق ، محمد أسد ،(تر: د. عُمر فرُّوخ) ، دار العلم للملايين(بيروت- لبنان)،١٩٨٧م.

-الاستشراق أهدافه ووسائله دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، د. محمد فتح الله الزيادي ، دار قتيبة(جامعة ميتشيغان)، ط١، ١٩٨٨م .

- الآخر في أدب الرحلة دراسة أنثروبولوجية ، د. وائل بن يوسف العريني ، دار المتوسطة للنشر(الجمهورية التونسية)، ط١، ٢٠٢٠م.

-أخبار مكّة وما جاء فيها الآثار، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي ت٢٥٠هـ، تح :عبدالملك بن عبدالله بن دهيس، مكتبة الأسدي، الرياض ، ط١، ٢٠٠٣م.

-اختراق الجزيرة العربية، سجل لمعرفة الغرب بشبه الجزيرة العربيّة، ديفد جورج هوجارت، تر: صبري محمد حسن، مراجعة: جمال زكريا قاسم، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

-أدب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٧م.

-أدب الرحالة في النثر الجزائري الحديث، إعداد (أ.د عبد المالك ضيف)، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف -ميلة، معهد الآداب واللغات.

-أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل، دار العربية للكتاب(القاهرة)، ط٢، ٢٠٠٢م

-أدب الرحلات، كارل طومسون، ترجمة محمد الجندي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٩م.

-أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في مرآة الرحلة الغربية المعاصرة: سعيد بنسعيد العلوي، دار رؤية للنشر والتوزيع(القاهرة)، ط١، ٢٠١٢م.

-البقاع المقدسة في الرحلة الغربية – رحلة في بلد العجائب- حج مسيحي إلى مكة والمدينة، د. مكي سعد الله، مجلة دراسات استشراقية، ع١٦ خريف ٢٠١٨م.

- تأملات، حلقة عن إسلام ليوبولد فايس مسجلة على اليوتيوب، وينظر مقدمة كتابه في الطريق إلى مكة،٢٠٢٠م.

-تجارب استغرابيّة (الغرب في مرآة الرحّالة العرب والمسلمين، مجموعة مؤلفين تحرير وإعداد: محمود حيدر، المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية(النجف- العراق)، ط١، ٢٠١٩م.

-تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(٢٢٤هـ- ٣١٠م) ، تح : د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ، دار هجر، ط١، ٢٠٠١م.

-ثقافة مكة المكرمة في أدب الرحلات، وسير أعلامها، د. إبراهيم بن عبد الله السماري، منشورات مكتبة الملك فهد، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م.

- الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، تح : دعبد الله بن عبد المحسن الزكي، مؤسسة الرسالة(بيروت)، ط١، ٢٠٠٦.

- رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة، للرحّالة البريطاني آرثر جون وافل الحاج الزنجباري ، ترجمة: ريم بو زين الدّين، مراجعة وتحرير د. أحمد إيبش ، دار الكتب الوطنية- هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث ، ط١، ٢٠١١م.

- الرحلة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، أحمد محمود أبو زيد، كتاب المجلة العربية، الرياض، ١٤٣٦هـ.

-رحالة إسباني في الجزيرة العربية، رحالة دومنجو باديا(علي باي العباسي) إلى مكّة المكرمة، سنة١٢٢١هـ/١٨٠٧م، ترجمهُ و درسهُ وعلق عليه: د. صالح بن محمد السيدي، دارة الملك عبد العزيز(الرياض)، ١٤٢٩هـ.

- رحلات علي باي العباسي إلى مصر و الحجاز و فلسطين و دمشق، دومينجو باديا إي ليبليش، ترجمة وتقديم : د. طلعت شاهين، مراجعة : أحمد عبد اللطيف، في المتحدة للطباعة و النشر(أبو ظبي)، ط١، ٢٠٢٢م.

-الشرق الخيالي ورؤيا الآخر، صورة الشرق في المخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، تييري هنتش، ترجمة: د. مي عبد الكريم محمود، دار المدى(دمشق)، ط١، ٢٠٠٦م.

-شعريّة الرحّلة الأدبيّة(في السرد العراقي المعاصر)، د. زينب ساطع عباس، دار الشؤون الثقافية العامة (ببغداد)، ط١، ٢٠٢٠م.

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي تح :لجنة من العلماء ، القاهرة ، البابي الحلبي .

- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.

- الصورة الشعرية في النقد الحديث، بشرى موسى صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت ١٩٩٤م.

-صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، د.عدنان محمد عبد العزيز وزان، داراشبيليا(الرياض)، ١٤١٨هـ.

-صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي (دراسة تاريخية نقدية مقارنة)، د.عدنان محمد عبد العزيز وزان، دارا شبيليا(الرياض)، ١٤١٨هـ.

-صورة الآخر في رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد و العشرين) ،بوشعيب الساروي، النايا للدراسات و النشر(بيروت –لبنان) ، ط١، ٢٠١٤م.

- صورة الآخر في الخيال الأدبي، طوني موريسون، تر: محمد مشبال، داركنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨م.

-صورة القدس الشريف في رحلات مرآة الغربيين، أ. د حنفاوي بعلي، (عمان-الاردن) ، دار الايام(عمان)، ط١، ٢٠٢٠م.

-صورة الآخرفي رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحد و العشرين) ،بوشعيب الساروي، النايا للدراسات و النشر(بيروت –لبنان) ، ط١، ٢٠١٤م.

-صورة القدس الشريف في رحلات مرآة الغربيين، أ. د حنفاوي بعلي، (عمان-الاردن) ، دار الايام(عمان)، ط١، ٢٠٢٠م.

- الطريق إلى مكّة ، ليوبولدفايس (محمد أسد)، تر: رفعت السيد علي، منشورات الجمل(بيروت- لبنان)، ط١، ٢٠١٠.

- الطريق إلى مكة، محمد أسد ترتيب: صالح بن عبد الرحمن الحصين، مؤسسة الوقف(الرياض) ،١٤٣١هـ.

- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، د. أحمد سمايلوفتش ، دار الفكر العربي(نصر- القاهرة)، ١٩٩٨م .

-في الطريق إلى مَكَّة، ليوبولد فايس، ترتيب: الشيخ : صالح بن عبد الرحمن الحصين، مركز المربي ، ط١، ٢٠١٧م.

- كتابات الرحالة مصدر تاريخي، د. علي عفيفي علي غازي، كتاب المجلة العربية ٢٦٢(الرياض)، ١٤٣٩هـ.

- كتاب الاختلاف في أدب الرحلة(من القرن الثالث حتى نهاية القرن الثامن الهجري، د. حافظ قاسم صالح القطيبي، دار السويدي للنشر و التوزيع، الإمارات العربيّة المتحدة(أبو ظبي)، ط١، ٢٠٢٢م.

-الكلمات المفاتيح، ريموند وليمز، ترجمة: نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ) (أمين محمد عبد الوهاب –محمد الصادق العبيدي)، دار احياء التراث العربي (بيروت –لبنان) ، ط٣، ١٩٩٩م.

ليون روش، نقله إلى العربية وقدّم له وعلّق عليه: محمد خير محمود البقاعي، جداول(بيروت- لبنان)، ط١، ٢٠١١م.

-مكَّة المدينة المقدسة، ضياء الدين سردار (تر: د.هبة رءوف عزت) ،جسور(لبنان-بيروت) ، ط١، ٢٠١٧م.

-مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، د.حسّان خلاق ، بيروت ، ط١، ١٩٩٦م.

-المطابقة والاختلاف، عبد الله إبراهيم، مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث،(الرباط- بيروت)، ط١، ٢٠١٧م.

-المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى –أحمد حسن الزيات، المكتبة الإسلامية(تركيا-إسطنبول)، ط٢، ١٩٧٢م.

- مٍعجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م (د.ط).

-معجم مقاييس اللغة، لأبي الحُسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت٣٩٥)، بتحقيق وضبط: عبد السلام هارون، رئيس قسم الدراسات النحوية بكلية دار العلوم سابقًا و عضو المجمع اللغوي، دار الفكر، ج٢.

-ما بعد الاستشراق (المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب)، حميد دباشي، ت: باسل عبدالله وطفة، مراجعة: حسام الدين محمد، منشورات المتوسط (ميلانو –ايطاليا)، ط١، ٢٠١٥م.

- ما قبل الاستشراق الإسلام في الفكر الديني المسيح، عبد الإله بلقريز ، مركز دراسات الوحدة العربية(بيروت)،ط١، ٢٠٢١م

-محمد أسد من غاليسيا إلى البلاد العربية(١٩٠٠-١٩٢٧م) ، جونثرفندهاغر، (تر: سلام عمر محمود)، دارة الملك عبد العزيز(الرياض)، ط١، ٢٠١٦م.

-منهاج الإسلام في الحكم، محمد أسد، ترجمه منصور محمد ماضي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

-من مكة إلى لاس فيجاس (أطروحات نقدية في العمارة و القداسة)، د. علي عبد الرؤف دار الكتب المصرية (الزيتون -القاهرة)، ط٢، ٢٠١٤ م.

-مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب(١٨٣٢-١٨٤٧)، يوسف مناصرية، المؤسسة الوطنية للكتاب٣(الجزائر)، ١٩٩٠م.

ثانيًا: الرسائل والاطاريح.

-صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية ، بلال سالم الهروط، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة ، إشراف د. فايز القيسي، ٢٠٠٨م.

-صورة الآخرفي رحلات عربية (من القرن العاشر الميلادي إلى القرن الواحدوالعشرين)، بوشعيب الساروي، النايا للدراسات و النشر، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.

-مكة و علاقاتها بالحواضر الحجازية و الدول المجاورة من (القرن ١٩ق.م إلى القرن ٧) ، سلوى بوشاب (د. الطاهر دراع) تحت اشراف د. الطاهر دراع، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.

ثالثًاً: المجلات والدوريات.

- رحلة الحاج المعاصر إلى مكّة(الاستشراق في حدود الوصف)، للرحالة البريطاني وافل، رامي أبو شهاب، القدسُ العربي، أبريل-١١، ٢٠١٩.

- الإسلام في عيون المستشرقين، آرثر جون آربري (الأمريكي المتصوف) ،البيان،٦- أيلول ،٢٠١٦.

-الجوسسة الفرنسية في الجزائر في العصر الحديث و المعاصر "الجاسوس ليون روش"، جيدل عبد العزيز، دورية كان التاريخية ، الجمهورية اللبنانية(بيروت)، السنة الثالثة، العدد ١٠، ديسمبر٢٠١٠.

- دوافع الاستشراق و أثرها في الفنّ الاستشراقي، د. ربيع أحمد سيّد أحمد، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، صيف ٢٠٢١م.

- رحلة الحاج المعاصر ": مشاهدات آرثر جون وافل، حكيم عنكر، العربي الجديد ٤-فبراير-٢٠١٨.

-الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية ، عبد الرحمن بوعلي ، مجلة جامعة الشارقة (الإمارات العربية المتحدة)، ٢٠٢٠سنة، عدد٢أفريل،مجلد ١٢.

- قصة الجاسوس الفرنسي ليون روش، المخابرات و الجاسوسية، الأقسام العسكرية، منتدى الجيش العربي، الجمعة ٢ديسمبر٢٠١٦، ١٨:١٣.

- ليون روش قصة الجاسوس الفرنسي الذي عطّل مقاومة الاستعمار في الجزائر لسنوات، عبد القادر بن مسعود، ساسة بوست، ١٤ــ تموزــ ٢٠٢٠.

- محمد أسد من عالم الغرب إلى أخوة المسلمين، ومن النظرة العلمانية إلى الإسلام، منير شفيق، ثقافتنا للدراسات والبحوث، مج٥، ع٢٠، ٢٠١٠م.

-مفهوم الصورة وحضورها في النقد الأدبي عند العرب والغربيين، د.عمر بلمقنعي ، التواصل في اللغات و الآداب ،جامعة باجي مختار عنابة (قسم اللغة العربية و آدابها) ، عدد٤٦،(جوان)، ٢٠١٦م.

- مكة بوصفها مكانا استثنائيا، قراءة في سردية أدب الرحلة، د. نايف بن رشدان بن عتيق الهجلة، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، ع١٢٠ ، اكتوبر، سنة ٢٠٢٢م.

رابعًا:المواقع الإلكترونية.

-ترجمة محمد أسد للقرآن الكريم، د. إبراهيم عوض موقع شبكة أهل التفسير

https://vb.tafsir.net/tafsir.

-الخارجون عن النسق ليوبارد وايس في (الطريق إلى مكة)، د.هاشم الموسوي ، مركز الاعلام الدولي ، رؤى وتحليل ، ٢٧-٠٥-٢٠٢١.

- رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، الاستشراق في حدود الوصف، رامي أبو شهاب، جريدة القدس العربي، https://www.alquds.co.uk/.

- دروب المعرفة للترجمة، ترجمة (عماد شراب) ،محمد أسد ليوبولد فايس (سابقًا) حلقة في اليوتيوب ، قبل ٣ سنوات، ٢٠٢٢-٦-٦.

- طريق محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام ، حلقة يوتيوب،ج١، ٧-٦-٢٠٢٢ https://youtu.be/_٢AapUq١ZC٨.

https://youtu.be/١X٥dqWsK٥fI.

https://youtu.be/xOD٢mNQ٤lkU.

-طريق محمد أسد من اليهودية إلى الإسلام، حلقة يوتيوب،ج٢، ١٧-٦-٢٠٢٢.

-الكالفينية، ينظر معجم الأديان، ويكيبيديا، https://ar.m.wikipedia.org/wiki/%D٩%٨١%٩D%٨٤%٩D%٧A%٨D%٨٣%٩D%٨٦%٩D%٨A%D٨%٩A%D٨.

-المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية(العتبة العباسية المقدسة) https://www.iicss.iq/?id=١٤&sid=٤٨ .

- محمد أسد، الموسوعة النمسا، موقع الجزيرة، ١٦-١٢-٢٠١٤ https://www.aljazeera.net/encyclopedia

Abstract

This study is based on an investigation of the nature of the cultural image drawn by three orientalists of Makkah Al-Mukarramah, which represents the heart of the Islamic world in their travels to it for different reasons and motives, by describing this image as a mirror in which we see ourselves and ourselves as Arabs and Muslims through the different / non-Arab other.

The thesis extended to three chapters and a preamble that clarifies the study's entrances and terminology, and each of the three chapters illustrated a different pattern of image patterns that were neutral based on detection and knowledge at (Arthur John Wavell) and tendentious at (Leon Roach) because of their underestimation and degradation of the value of the other at this point. The orientalist known for his espionage and service to the French occupation and his hatred of the Arab-Islamic resistance to this occupation, and the nature of the third image tended to (bias) in favor of the place and its associations related to its customs and beliefs that the German orientalist (Leopold Weiss) admired and tended to after he abandoned his first religion, converting to Islam, and calling himself (Muhammad Asad).

The study, which adopted description and analysis as a method to reach its results, confirmed the imprinting of different images of Makkah in the writings of travelers and orientalists, which are images that express different motives and goals, but

they are linked to their owners, their culture, and their attitudes. Academic studies should tackle learning more texts that others write about our cultures and literature. Our customs and traditions.

Ministry of HigherEducation and Scientific Research
University of Kerbala
College of Islamic Sciences
department of Arabic language

The image of Mecca in the orientalist travel literature- Analytical study on selected models –

A thesis submitted to the Council of the College of Islamic Sciences / University of Karbala and is part of the requirements for the Master's degree in Arabic Language and Literature

Written By the student

Aya Abbas Fouad

Supervised by

Prof. Dr. Ali Muhammed Yassin

November 2023A. D **Second spring 1445 A.H**